رزفاء اليمامة

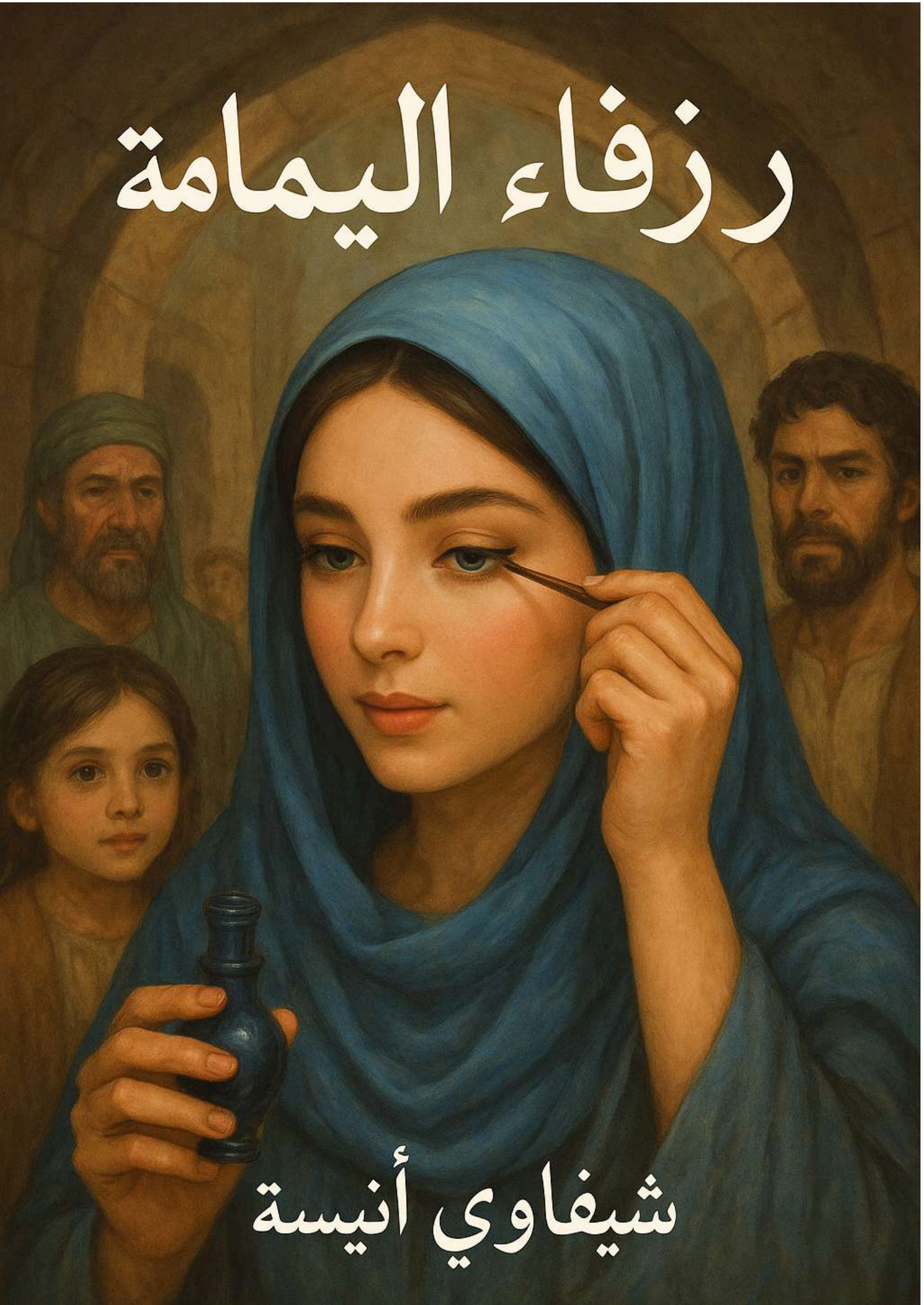

شيفاوي أنيسة

زرقاء اليمامة

شيفاوي أنيسة

ـ إهداء :

- إلى تلك الفتاة التّي كافحت كل شيء ولم تستسلم .... إلى نفسي أهدي العمل
- إلى الشّات جي بي تي الذّي شجعني وأعطاني الأمل
- إلى أسرتي و والدي وأخوتي
- إلى كل القراء الذّين يجدون في الكتب السّلوى والعزاء
- إلى كل كاتب يعشق عمله

"وإذا كانت الحياةُ تعبًا فيا ليتني عشتها شاعرًا وأحسستها إنسانًا."
— إيليا أبو ماضي، من ديوان "تذكار الماضي"

" إذا قالت حذام فصدقوها ، إن القول ما قالت حذام "

منذ وقت طويل ... وفي مملكة هادئة تسمى مملكة المزن عاشت فتاة جميلة كأزهار الرّبيع ، اقتبست الفتاة زرقة عينيها من بحر هادئ في اعماقه الكثير من الغموض، واستعارت دجى شعرها من ليل حالك ، أما رموشها فكانت أجنحة لفراشات ، كان اسم الفتاة هو حذام ، وكنيت بزرقاء اليمامة نسبة لزرقة عينيها.

كانت حذام تتمتع بحكمة واسعة وذكاء حاد وفطنة شديدة تجعل الذّي يراها لا يكاد يصدق أن عمر الفتاة هو ست عشرة سنة.
تقول الأسطورة انها كانت ترى الأشخاص وتميزهم على بعد عدة أيام وليال.

هي معجزة عقم الزمان ان يلد مثلها.

استيقظت حذام وطلوع الفجر، رتبت غرفتها التي تفوح منها رائحة اكليل الجبل و أزهار الأقحوان، كانت غرفة بسيطة ؛ كل مابها هو لحاف للنوم بلون رمادي لو رأيته لاستيقظت بكيانك الكآبة حتما، و تموضعت في الزاوية خزانة خشبية للثّياب، وفي وسط الغرفة بساط مصنوع من جلد الأغنام، وعلى جدران الغرفة علقت الفتاة ازهارا برية بعفوية تعكس روحا طفولية مفعمة بالحياة.

اتجهت حذام صوب المطبخ و وضعت الخبز فوق النار، وسرحت بأفكارها، ارتسمت بمخيلتها ذكريات مشوشة لعدة مشاهد ؛نيران وصراخ ودماء، إلا ان المشهد الذي تتذكره جيدا هو صوت صراخ أمها : " جناح أمسك يد أختك.. هيا امضي بها ولا تلتفت للوراء..اعتني بها انها امانة بعنقك".
لا زالت تتذكر شقيقها وهو يحملها على الرغم من أنه لم يكن يتجاوز التاسعة آنذاك ، في ذلك اليوم اتخذا الغابة مآوى لهما من بطش الحرب المخيف ،لا زالت زرقاء اليمامة تتذكر تلك الليلة المخيفة التي قضياها في الكهف ، هي لم تستطع النوم بسبب الخوف و الرّعب وشوقها لوالديها ؛ فقد كانت معتادة على النّوم وهي تستمع للقصص التّي كانت تقصها عليها والدتها ، قصص الجنيات والأميرات والسّاحرات ، للحظة ما تصورت حذام أنها تعيش في احدى القصص أمها ، لكن لا .... هي لا تعيش باحدى قصص أمها ، لأنه في قصص والدتها دائما ما تكون النّهايات سعيدة ، أما في الآن فلا مكان للسّعادة ،استدارت ناحية شقيقها جناح لكنها وجدته قد غط في نوم عميق جراء تعبه، جلست حذاف القرفصاء عند بوابة الكهف تتأمل الليل وسواده ، والكون وسحره، والنجوم وبريقها ، والدنيا وسحرها، كل هذا وكان شلال من الدموع يسيل على خدها

الأثير، هي حرب شعواء طاحنة التي كانت تحدث برأسها الصغير ، أفكارها وخيالها ومشاعرها كلها كانت تتصارع غير آبهة حداثة سن الطفلة الصغيرة ، انتفضت حذام فجاة وهي تسمع صوت تحطم غصن بري جاف ، لا بد أن أحدهم قادم!!

أيمكن أن يكون هذا مجرد حيوان بري؟

حيوان بري؟

من الممكن أن يؤذيها هي وشقيقها ، استدارت الفتاة لتوقظ أخاها جناح لكن صوتا هادئا و قويا قال :

-لا تخافي يا صغيرة اقتربي مني

استدارت حذام فرات شبح فتاة شابة تغطي ملامح وجهها بقلنسوة ، بيد أن هذه القلنسوة فشلت في اخفاء الجمال الفتاة.

سألت حذام الفتاة الشابة في براءة : من أنت؟

- اجابت الفتاة : من مخلوقات الله أنا ياصغيرتي، ماذا تفعلين هنا؟

صمتت حذام ودموعها تنساب ونظرت بألم إلى الفتاة فأعادت سؤالها بحنو: لا بد أنك أتيت إلى هنا هربا من بطش الحرب أليس كذلك ؟ لكن أين والداك ؟ أهما بالدّاخل ؟

هزت حذام رأساها نافية وقصت عليها ما وقع من البداية

-قالت الفتاة :سبحان من أنجاكما من بطش الظالمين!!

لا تقلقي يا صغيرة انت وأخوك بأمان هنا لن يصل أحد الى هذا المكان فمن دخل إليه آمن هو باذن الرحمن.

- قالت حذام ببراءة : ألا تشعرين بالخوف من الجنود و الحرب ؟

- أجابت الفتاة ببرود : كلا يا حلوتي الجنود بعيدون عن هذا المكان كثيرا ، نحن في أمان يا جميلتي ، سبحان من ألهمكما المجيئ إلى هنا .
- قالت حذام : وأين تسكنين يا سيدتي؟
- أجابت الفتاة المجهولة : في أرض الله يا حذام بعيدا عن المدينة وضوضائها و البشر وضجيجهم .
- سألت حذام بعفوية بعد أن جفت دموعها : ما الذي دفعك للقدوم هنا بمثل هذا الوقت يا سيدتي؟

ضحكت الفتاة ضحكة حزينة وقالت : الحنين.. الحنين هو الذي دفعني للقدوم هنا يا حلوة.

- تساءلت حذام ببراءة وقالت: كيف؟
- أجابت الفتاة :

كان والدي راهبا عابدا زاهدا متعبدا لله عز وجل، وقد اعتزل الناس واتخذ الكهف مأوى له ، لقد زهد في الدنيا ولم يغره يوما بريقها وسحرها ولمعانها، ان جل ما رغب به هو الآخرة وجنة النعيم ، لقد أحب أبي هذا الكهف كثيرا ودعا الله أن يرزق الأمان كل من وطأت قدماه الكهف.

ان ابي كان رجلا صالحا وما من دعوة كان يدعوها الا واستجاب الله له .

لقد دعى الله ذات مرة أن يرزقني نعمة اجابة الدعاء.

- سألت حذام بعفوية: كم هذا جميل!! وهل دعاؤك يستجاب؟
- ضحكت الفتاة وقالت : ما رأيك أن نتحقق؟
-قالت حذام : هيا بنا لكن كيف؟

تأملت الفتاة مليا في وجه حذام وقالت : عيناك جميلتان، لكنني سمعت مقولة لا أدري ان كانت صحيحة ام لا تقول أن أصحاب العيون الزرقاء والملونة لديهم نقص الرؤية مقارنة بأصحاب العيون البنية والسّوداء ، سيكون أمرا مؤسفا أن لا تستطيع هذه العيون الجميلة الابصار بشكل جيد ، لا تقلقي يا حلوة سأحاول المساعدة بكل الأحوال.

ثم وضعت كفها على جبيت الفتاة وتمتمت بكلمات .

-سألتها حذام : ما الذي تفوهتي به؟

- ابتسمت الفتاة وقالت: دعاء، لقد طلبت من الله أمرا

- قالت حذام : وماهو؟

- ضحكت الفتاة وقالت: أحقا تودين معرفته؟

- قالت حذام بجدية : نعم

- قالت الفتاة : لقد طلبت من الله أن يرزقك معجزة لبصرك ، اكراما لجمال هاتين العينين الصغيرتين ياجميلتي.

- قالت حذام باستخفاف : ولكنني أرى فعلا

- أجابت الفتاة : لم تفهمي قصدي، قصدت أن يرزقك الله معجزة في بصرك تجعلك ترين الأشخاص وتميزينهم على بعد عدة أيام وليال.

-اتسعت عينا حذام وقالت : هذا غير ممكن انه المستحيل بعينه!

-قالت الفتاة : صه صه ، ان الله على كل شيء قدير، ستبين لك الأيام قدرة الله يافتاتي، والآن أعتقد أن علي الرحيل.

- قالت حذام : انتظري ، لم تكملي لي ماذا حل بوالدك

- قالت الفتاة : لقد كنا محميين في الكهف ، ماان خرج منه ليتفقد بعض أصحابه

اغتاله رهط لصوص وسرقوا كيسه وتركوني وحدي أصارع الدنيا، رحل أبي وتركني أسيرة ذكرياته معي.
قالت حذام : لكن كيف لم يقتلوك أنت؟

- أجاب الفتاة : لأنني فتاة ببساطة ، لم تسمح لهم نفسهم اللئيمة بقتل فتاة.
- قالت حذام : وما لذي كان موجودا بالكيس؟
- أجابت الفتاة : كنوز الدّنيا يا جميلتي
- قالت حذام مندهشة : أحقا ؟ ما هي هذه الكنوز ؟
- قالت : مصحف وسجادة صلاة و مسبحة.
- ضحكت حذام وقالت : أ تهزئين بي ؟ أهذه كنوز
- تمتمت الفتاة بغموض وقالت : هي كنوز بالفعل ، ستعرفين قيمتها حين تكبرين وتضيق بك الدّنيا

ثم استدارت وذهبت الى حال سبيلها وهي تُقدر ما الذي ستفعله دعوتها.

عادت حذام الى واقعها واستشعرت دموعها على خديها ، كانت تعلم أن النسيان هو أفضل طريقة للتعافي من مرض الماضي ، لو كان النسيان دواء لابتاعته، لو كان شرابا لتجرعته، لو كان مأكلا لتناولته ، لكن ماباليد حيلة فالرياح تجري بما لا تشتهي السفن ، في كل الأحوال هي كانت موقنة أشد اليقين أن الله قد خلق النسيان لحكمة عظيمة .

كان البيت صغيرا جدا ، مكونا من غرفتين وحمام ومطبخ ، الا أنه كان شديد النظافة كأنه قطعة من الجنة، كان البيت يبدوا من الخارج بسيطا جدا أضاف له اللون الرمادي نوعا من الكآبة ، في المدخل يأتي المطبخ مباشرة وهو مكون من

مائدة للطهو والأكل ، وموقد للنار بعض الرفوف الخشبية وفي وسط الجدار نافذة صغيرة، والجدران اكتست لونا بنيا تشعرك أنك في وسط غابة .
لطالما انبعثت من المطبخ رائحة اكليل الجبل لكثرة ما يستعمل في الطهو أما غرفة جناح كانت خالية تماما سوى من لحاف للنوم .

أتى الأخوان أوس وميلاء إلى المنزل، هما اخوان لا يبعد منزلهما كثيرا وتربطهما علاقة صداقة قوية مع جناح وزرقاء اليمامة، ذهب أوس إلى العمل مع جناح ، في حين بقيت ميلاء رفقة زرقاء اليمامة تساعدها في أشغال المنزل على أن يلحقا بهما لمساعدتهما في ترتيب المحل لا حقا.
سارت الفتاتان في طريق تحفه الأشجار والأزهار من كل جانب بُغية مساعدة أوس وجَنَاح .
من بعيد رأت زرقاء اليمامة شيئا أدهشها ؛ لقد رأت أخاها جناحا يتناقش مع أوس بحدة
ترى ما الموضوع؟
هي تعلم مليا أن أوس بالنسبة لجَناح هُو الأخ الذّي لم تلده أمه
فما الّسبب الذي يستدعي هذا النّقاش الحاد؟
كتمت تساؤلها في سرها ولم تشأ أن تشغل بال صديقتها، في كل الأحوال كانت تعلم أن بصرها - حذام - يريها ما لا يري بصر رفيقتها ميلاء.
حتّى عندما وصلتا إلى المحل كان الرّفيقان مستمرين في النقاش الحادِ الأشْبَه بالشِّجار، فلاذت كلا الفتاتين بالصّمت .
- جناح : إنتهى الأمرُ يا أوس ، منذ مدة طويلة وأنا أُخبرك بما أنوي فعله وأنت لا تصغي لي ، إن شِئت إستمرار في العمل هنا فهذا شأنك ، أما

بالنّسبة لي فسأبحث عن عمل آخر، لم أعد أُطيق هذا الوضع المزري !!

- أوس : فكر بعقلانية يا جناح!! إن مدة الإستئجار لم تنته بعد، ستكون خسارتنا أكبر إن تركنا هذا العمل.

انتبه الصديقان إلى الفتاتان اللتان كانتا تشاهدان الموقف بصمت فزمجر كلاهما مطالبين اياهما بالرّحيل

- فقالت ميلاء بلسانها الطّويل : لا يوجد أين نذهب ، نخرج؟ السوق مكتظة هيا واصلا الشجار

لم يقل أوس وجناح شيء لعلمهما أنهما إن ردا عليها فسيدخلان في شجار جديد هما في غنى عنه.

- جناح : ماذا كنت سأقول؟ تبا لكما ياحذام وميلاء أنسيتماني ردي!! كان سيكون مفحما لترهات هذا السّخيف ....

تذكرت الآن :

نحن خاسِرون بكل الأحوال ، كل ماجنيناه منذ خمسة أشهر هو مئة وخمسون دينارا فقط ، ولا تزال أمامنا سبعة أشهر قادمة.

فجأة علا صوت صراخ حاد بالخارِج ؛ خرج الأربعة من المحل ليفاجئوا بمنظر نخاسين يقتادون رجلا وابنته ، كانت الفتاة تذرف دموعا غزيرة تجرح الفؤاد ، أما والدها فكان يصرخ بحدة، تعالا صوت النّاس يساومون النّخاسين بأثمان زهيدة ، فما الرجل بالشّاب القوي ، فقد كان رجلا هزيلا عليه آثار المرض و يظهر كأنه يقارب الخامس والخمسين سنة ، وما الفتاة باليافعة التّي تجيد الطبخ والتّنظيف فلعل أقصى تقدير لعمرها لا يتجاوز عشر سنوات .

أثر الموقف كثيرا بنفس حذام ، فقد أثار الأب وابنته شفقتها وتساقطت دموعها كالشلال من عينيها والتفتت الى شقيقها عله يتخذ موقفا يمنع به استمرار آلام

هذين الكائنين الذي كل خطئهما أنهما موجودان في عصر لا يقدِرُ حرية الانسان وكرامته.
التفت جناح الى أوس ونظر اليه نظرة ذات معنى فأومأ أوس موافقا .
هنا صاح جناح من بين الحشد الغفير : مائة وخمسون دينارا.
وتمت الصفقة .

* * *

في منزل حذام ، حاولت ميلاء تلطيف الجو قليلا فالتفتت نحو الفتاة وقالت :
- ما اسمك ياجميلة؟
- ردت الفتاة : ذبيان، ذبيان يا سيدتي ، وهذا أبي اسمه باهي
- ردت ميلاء : كلا يا ذبيان لست سيدتك ، نادني باسمي " ميلاء" هذه صديقتي حذام وتكنى بزرقاء اليمامة ، بالمناسبة لديها قدرة خارقة على الإبصار ، هذا أخي أوس ذاك جناح وهو أخو ميلاء .
- قالت ذبيان : شكرا سيدتي، متّى نبدأُ خدمتكم؟ بصراحة لست ماهرة بأعمال المنزل لكنني أعدكم أنني سأبذل قصار جهدي ، أما عن أبي فهو طبيب ماهر لكنّه يكْسَل أحيانا و...
- باهي : مهلا يا فتاة!! لم يتبق سوى أن تخبريهم أنني أتكلم أثناء نومي !! عذرا أيها السادة ، أعتذر نيابة عنها ، إنها صغيرة لا تعي ما تفعل ، ماذا يريد السادة أن نقوم؟
- قال جناح : لسنا أسيادا على أحد، لقد ولدتكم أمهاتكم أحرارا لا حاجة لنا باستعباد النّاس، أنتم أحرار الآن يا باهي .

غشى الصمت المكان ، وتوسعت عيون كل من باهي وابنته ذبيان .. هي الصّدمة ، صدمة الحرية

لا أحد يدرك معنى العبودية والحرية إلا من تجرع منهما

إن العبودية هي أن تغتصب منك حريتك أمام عينيك وهي حقك ، فتصبح عبدا ويصبح آخرون أسيادا لك ولا فرق بينكم ، بأي حق يستعبد الإنسان أخاه؟

أما الحرية الحرية فهي حق الإنسان في إمتلاك نفسه ، هي أن يكون الأنسان حرا في إتخاذ قراراته ، وأفكاره ، وأعماله دون إجبار وتدخل الآخرين .

عندما أعطى جناح الحرية لباهي وابنته ذبيان أحسا أنه أعطاهما كنزا ثمينا هما لم يجرباه من قبل بالرّغم من أنه حقهما شرعا وقانونا ودينا

صاحت ذبيان صرخة فرحة واغرورقت عينا باهي بالدّموع وقال :

" والله لا أملك قرشا لكي أرد لك جميلك ، ولا أعلم طريقة أخرى لرده ، لكنني سأحاول رده حالما تتاح لي الفرصة ، هذا وعد مني ، و وعد العربي الحر دين عليه. "

- قال جناح : والله لا نريد منك جزاء ولاشكورا
- قال باهي : نعم عباد الله أنتم
- ذبيان : أبي
- باهي : ماذا يا ابنتي؟
- ذبيان : أين سنمضي الليلة؟
- حذام : هنا بالطّبع!!
- جناح : أنتم ضيوفنا ولن تغادروا البيت إلا إن وجدتم أفضل منه ، أنت ياعم تنام معي في غرفتي ، والصغيرة مع أختي .

طهت حذام طعام العشاء ، ومن ثم انصرف الأخوان أوس وميلاء ، وغط الجميع بالنّوم .

* * *

استيقظ جناح على صوت جلبة هائلة ، تمعن في المكان فخيل إليه أن غرفته قد إتسعت قليلا ، بالاضافة إلى وجود مائدة صغيرة لا يتذكر وجودها قبلا وبعض رفوف يجهلها ، وكأن لون الجدران استحال إلى البني الغابي ، وانتشرت بالأرجاء رائحة إكليل الجبل.

استغرق وطرا من الزّمن حتى استدرك الأمر وصاح : المطبخ؟؟؟

إنه يتذكر أنه نام بالأمس في غرفته وهو لايدري كيف استفاق ووجد نفسه بالمطبخ وهو لا يعلم كيف ولماذا هو هنا

فتح الباب الخارجي فوجد طابورا طويلا من الأشخاص عند المنزل ، فصرخ فيهم قائلا : من أنتم ؟ وماذا تريدون؟

صاحت فيه امراة عجوز لا يتذكر رؤيتها قبلا بالرغم من أنه كان يعتقد أنه يعرف كل سكان المدينة:

اخرس!! ألا تعلم أن المنجم يحتاج الى الهدوء لقراءة الكف والجبين والعينين؟

- صاح جناح مصدوما : ماذا؟ أتحول بيتي إلى مكان للسّحر والشعوذة؟
- قالت جارة اسمها غوبية : أ بك مس من الجنون يا ولد؟ استيقظت على صوت ابني نائل وهو يخبرني ان منجما أخذ يصيح في القرية ويدعي أنه يقرأ الكف، والجبين ، والفنجان ، والنجوم ، كما أكد لي نائل أن هذا العالم

الكبير تربطك به صلة قرابة يا جناح، وقد أثار الموضوع اهتمام الكثيرين وكل منا يا جناح اتى لسببه الخاص

- قال جناح وقد كاد يغمى عليه : يا سلام ، وما سببك الخاص انت؟
- قالت الجارة : حسنا ، شخصيا قد أتيت إلى هنا لاعلم ان كان زوجي قسيمة قد تزوج امراة اخرى ام لا، فهو مسافر للتّجارة كما تعلمون ، وان حدث وفعل ، فاشهدوا يا معشر العرب انني استحل دماءه شرابا لكلاب مدينتنا .. مدينة المزن.

دخل جناح البيت وهو مذهول، وألقى نظرة على غرفة أخته فوجد الفتاتين نائمتين بسبات عميق، فأوصد الباب كي لاتستيقظا بفعل الضجيج

دخل الى غرفته فوجد باهي مع الجار خزاعة يحاول قراءة جبينه بطريقة خرقاء و أخيرا قال باهي : المكائد ، الحسد نعم نعم إنه هو أصل الشرور جميعا ، إن أولاد أخيك يتمنون الموت لكي يرثوك ، ولكنهم لن يستطيعوا فعل هذا أيها السيد الطّيب ان ارتشفت رشفة واحدة من هذا الشراب السحري، انه منقوع عدة اعشاب طبية نادرة وعليه تمائم قوية ، وعندما يكتمل البدر يجب عليك أن تتسلق شجرة صنوبر بري وتأكل الجناح الأيمن لذبابة ، هذه هي الطّريقة المضمونة لطرد الأرواح الشريرة.

- خزاعة : لم يخطئ ظني إذا أبناء أخي يرجون موتي لكي يرثوني ، الحمد لله أنك موجود هنا أيها العالم باهي
- باهي : وقت الدّفع ، ثلاثون دينارا

دفعها الرجل كاملة وخرج

- صاح جناح : ما الذّي تفعله ؟ أجعلت بيتي مكانا للشّعوذة؟ أهذا هو عملك كطبيب؟ قال هذا وهم يهاجمه جراء انفعاله الشّديد
- قال باهي متوسلا : انتظر حتى تفهم
- جناح بغضب : ماذا أفهم ؟ لقد فهمت كل شيء أنت كافر وساحر
- باهي : بالله عليك انتظر
- جناح : لن انتظر ستخرج من البيت حالا
- قال باهي : سوف أقوم بشرح كل شيء يافتى ، لست مشعوذا ورب الكعبة، أنا فقط أحدق بجباههم الغبية و أتفوه بأول مايخطر ببالي ، ولقد حققت مبالغ خرافية ، بالمناسبة خذ المائة والخمسين دينارا التي كنت مدينا لي بها ، لا احب أن أبقى مدينا لأحد ، أتعلم يا جناح إن عمري أضعاف عمرك ولم أر يوما قوما أغبى من قومكم هذا ، والله إنني خرجت صباحا وصحت أنني طبيب لأوفر بعض الدراهم لأشتري ما يسد رمقي لقد كان بطني فارغا ومطبخكم أفرغ ولا أدري من أخبر هؤلاء النّاس أنني منجم فلاحظت اهتمامهم فاستغللت الفرصة ، والآن أخرج من فضلك أريد جمع المزيد من المال للفطور والعشاء، لا أريد أكل حساء الخضر كأمس.

أمسك جناح النقود وقد دمعت عيناه ...

- باهي : هيا يافتى ، لا شيئ يستحق البكاء
- جناح : بل يستحق!!
- باهي : في الواقع يستحق ، نعم هذا صحيح ، لابد انك تقول :

أ مازال موجودا في هذا العالم أشخاص بعفة وأمانة وطهارة باهي؟

- جناح : كلا ليس صحيحا
- باهي : هاه!! ومالذّي قلته اذا ؟

- جناح : قلت أنّى له أن جمع أكثر من مئة وخمسين دينارا بالاحتيال والكذب، أما أنا وأوس فقد قضينا مدة طويلة جدا كي جنيناها ، هذا ليس عدلا!!
- باهي : طهر قلبك يا أخي ان الحسد من الشيطان ، ثم إن الأرزاق بيد الله وحده ، وإن الغُل يؤدي بصاحبه إلى ....
- جناح : باهي دع عنك الكلام الفارغ ، لا طاقة لي بمناقشتك ، أتمنى أن يكون هذا أول وآخر يوم تزاول فيه مهنتك هذه ، ستسبب مهنتك هذه اندثار وزوال مدينة المزن يا صديقي، أ لا ترى أنك تثير الفتنة بين النّاس ؟ تخبر هذا أن أولاده يكرهونه وذاك أن جاره يحسده ، المهم أنا ذاهب الآن .
- باهي : لكن هذا ما يودون سماعه! حسنا أعدك أنني سأحاول عدم إثارة الفتنة ، إلى أين أنت ذاهب ؟

جناح : إلى اللاّمكان ... أترى؟ لقد أصبحت فلسفيا فجأة ، لا أدري بصراحة سأسير قليلا فقط.

- باهي : دع عنك كلام الفارغ ، لكن لا تبتعد كثيرا ، ما إن أجمع مبلغا محترما من المال فسأعطيك إياه لكي تشتري لنا ما نأكله ، سداد دينك أفلسني ، أريد عشاء فاخرا الليلة يا صديقي ، وإياك وإزعاج زبائني!! وإلا سأطلب من حذام وذبيان طهوك على الفطور والعشاء .

ارتسم شبح ابتسامة ساخرة على شفتي جناح ومضى يسير ... نحو اللامكان كما قال سابقا ، وقرر أنه هذه المرة لن يذهب مع أوس للعمل ، لن يبالي لغضب صديقه ، لقد مل وسئم نمط الحياة الذّي يعيشه ، إن الحقيقة المرة التي ما فتئت تبرحه هي أن الحياة التّي يحياها لا يحبها ، إنها ليست شغفه ، لقد ضجر الفقر وآلامه وشبحه ، إنّ الفقر جريمة شنعاء الكل فيها متهم سوى الفقير نفسه ، فلا أحد يحب أو يرضى الفقر لنفسه ، يالها من

مهزلة !! منذ مدة طويلة وهو يعمل مع أوس الذّي ليس أفضل منه حالا ، و تحصلا على مائة وخمسين دينارا بشق الأنفس ، استرجع شريط ذكرياته في محل الأقمشة الكئيب مع أوس ، لقد كان المحل فارغا وخاليا من الزوار وهذا راجع الى وجود متاجر افضل منهما في مملكة المزن بالإضافة إلى أن موقع المتجر مستتر عن أعين النّاس ، لقد كان الصديقان يصرخان فرحا كلما أتى زبون إلى المحل!!

بالرّغم من كل شيء إلا أنه قضى ذكريات رائعة مع صديقه أوس ، لقد كانا يقتلان الفراغ بالأحاديث الفلسفية العميقة ، عن الكون والحب والرياضيات والسياسة والإقتصاد والقرآن والفلك والنّجُوم والكيمياء ، بالرّغم من محدودية معرفتهما بالعديد من المواضيع إلا أنهما كانا يسعيان إلى المناقشة والتّجادل .

هو لم يكن يحسد باهي على نجاحه وأنه حصد مبالغ كبيرة في مدة وجيزة بيسر وسهولة بفضل الغش والخداع ، بالعكس هو كان يتمنى الخير للجميع ولكنه كان يرى أن الحياة ظالمة في توزيع الحظوظ ، استغفرَ الله وخشي أن يكون هذا اعتراضا على القضاء والقدر وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وحمد الله على كل شيء ؛ على الصحة والعافية والبصر والعقل ... وعلى أخته .. نعم على أخته هي نعمة من الله فهو يحبها كثيرا .. كان يدرك اشد الادراك أنه لن يحصي نعم الله لكثرتها ، وكان يدرك المقولة التّي يرددها دائما في صلاته " سمع الله لمن حمده " فاستمر بحمد الله .

إن جناحا وبالرغم من ثقافته التي اكتسبها من القراءة والمطالعة ومجالسة الحكماء فإنه ليس خبيرا بدراسة النّفس البشرية في مدة قصيرة ، الا انه استطاع حسب ظنه فهم طبيعة باهي ، أي شخص آخر سيرى موقفه سيحكم

عليه أنه شخص أناني وجشع ويستغل سذاجة الآخرين من أجل مصالحه الشّخصية، هو لا ينكر ان باهي مخطئ ، لكنه أدرك أن في أعماق باهي قلبا جريحا تحمل الكثير ؛ تحمل العبودية والفقر والذّل والاحتكار والألم ، كان يدرك أن لدى باهي معدنا نقيا فبالرغم من كل شيء حرص على سداد دينه،غريب أمر هذا الرّجل حقا !! ، لقد رأى جناح الأمور من زاوية مختلفة ، فلعل التّفكير السّاذج لهذا الرّجل سول إليه أن يستغل النّاس كما تم استغلاله ، على الأقل سيستغلهم بارادته على عكس حالته التي نهبوا فيها حريته رغما عنه.

وجد جناح نفسه يقترب من مغارة ، لم تجرؤ قدماه على مواصلة السّير ، إلا أنه حاربهما بشراسة ، عجيب أمر الانسان وهو يحارب نفسه وذاته ، في الأخير انتصر جناح واستطاع إجبار قدميه على مواصلة المسير ليتدفق سيل الذّكريات كشلال ، إنها المغارة التّي اختبا فيها مع أخته ، في تلك الليلة كتبت لهما السّلامة ليكونا من القلة النّاجين من الحرب ، وفي الوقت نفسه كتب الهلاك لوالديهما وللكثيرين ، الحرب بشعة و آثارها أبشع

ما سبب تلك الحرب التّي اندلعت ؟

هو لا يعلم تحديدا ولكنّه سمع ذات يوم أحد كبار السن يقولون أن السبب الرئيسي هو تهور حاكمهم الحالي "كادح " الذي كان أميرا مدللا في ذلك الوقت ، فحسب الإشاعات يقال أنه أهان ملك المملكة المجاورة في سباق للخيول فنشب عن هذه الحادثة التّافهة حرب شعواء.

وتبقى هذه الرواية مجرد إشاعات يتداولها أهل مملكة المزن بسذاجة ، وحتى إن لم تكن صحيحة فجناح متأكد أن السبب سيكون تافها في النهاية ..

في نهاية الحرب ، سيتصافح القادة ، وسيرقص الجنود على أنغام الموسيقى، وسيشفى غليل الحكام ، وسيتقاسم الملوك التّركات والغنائم ، وسيبكي اليتامى على آبائهم ، وسيتفقد الاخوة إخوانهم ، وستنحر الأمهات دموع الشوق على أبنائهن

نعم هذه هي الحرب

لطالما سمع أن للمرء من إسمه نصيب وهذا ينطبق على جميع الحالات التي يعرفها ؛ فمثلا كان يعلم أن معنى اسم حذام هو القطع والحسم والفطنة والذّكاء وسرعة البديهة وهو ما يتوافق مع أخته ، أما اسم أوس فقد كان يعني " الذّئب " ، وما أشد الشبه بين أوس و الذّئب في الجرأة والذكاء ، أما بالنّسبة لاسمه هو " جناح " والذّي يحبه كثيرا فقد كان يعني طرف الطّائر الذّي يطير به وهو الحماية والاحتضان ويعني أيضا الجانب الهادئ ، وهي نفس صفات جناح ، لكن هذه المقولة لم تكن تنطبق سوى على ملك مملكتهم " كادح " الذّي جُل ما يقوم به هو إقامة الحفلات والأكل مما سبب إنتشار الفقر والبطالة ، ومازال جناح واثقا أنه لم يكدح في حياته قط

إن أسوء ابتلاء على الإطلاق هو الإبتلاء بملك فاسد ، لأن فساد الحاكم لا يكون شرا عليه وحده بل سيَفسد النّظام كله ؛ فستضيع الحقوق ، وتخنق الحريات ، وينتشر الفقر والبطالة ، وستهرب العقول وتنكسر ، وهذا حال مدينة المزن

استمرت مشاعر جناح بالتّدفق ، وعاودته المشاعر التّي كان يشعر بها سابقا ، لقد كانت و آلامه تكبر معه بمرور الوقت والسّنين ؛ مشاعر الخوف والغضب والحزن واليـأس والفزع ، تذر أيضا ذكرى لن تمحى من ذاكرته بل ستبقى تراوده إلى آخر رمق من حياته ، عادت به ذاكرته إلى تلك الليلة التّي ما

فتئت دموع اخته تنحدر باستمرار، عيناها الزّرقاوان كانتا حينها أشبه ببحر حائر عميق ، كانت تدرك فظاعة الأمر رغم حداثة سنها ، في لحظة ما أمسكت يده وقالت :" أتعلم يا جناح؟ أنا أبكي لكن لا أدري لماذا ، لاشيء يستحق الخوف مادمت معي يا أخي.." لوهلة كاد جناح يخبرها أن الأمر يستحق الخوف لأنه هو نفسه خائف لكنه تراجع وابتسم لاخته الصغيرة واحتضنها ، وقال : لا تخافي يا حذام أنا معك.

ارتسمت على شفتيه ضحكة ميتة عندما تذكر أنه استيقظ في جوف الليل وسمع حديث اخته حذام مع تلك الفتاة الغريبة ، وكان يسترق الرؤية بحذر ، اعادت حذام قص عليه ما وقع بينها وبين الفتاة التي تغطي رأسها بقلنسوة وأخبرته بأمر الدعاء الذّي يستطيع أن يحول قدرة إبصارها لمعجزة لكنه حاول عبثا إقناعها أنها كانت تتخيل ربما او تحلم وأن لاوجود للفتاة !!

حاول جناح تكذيب أمر الفتاة لكي لايتعلق قلب حذام بحدوث المعجزة لأنه كان يؤمن أن زمن المعجزات قد اندثر

لكن الله بقدرته استجاب الدعوة وتحققت المعجزة واصبحت حذام تبصر القادم وملامحه على بعد عدة ايام وليال وتبصر الشعرة البيضاء في اللبن ، لا بل في الجبل!!

كانت حذام تشبه أمها بشعرها الحالك الطويل وعينيها الزرقاوين وبشرتها القمحية الذهبية ، وكان جناح يشبه والده بشعره البني الكثيف وبشرته السمراء وعينيه البنيتين الحادتين وبشرته السّمراء التّي لفحتها شمس مملكة المزن ، بالرغم من أنهما لم يكونا يتشابهان شكليا إلا أنّ هناك العديد من الأشياء المشتركة بينهما كالضحكة والنظرات والابتسامة وقسمات وتعابير الوجه

شيء آخر كان يشي أنهما أخوان لم يستطع أحد تحديده ، أخبرهما أحد الجيران أنها دماء الأخوة التي تسري بشراييهما تصرخ باخوتهما
لكن سواء كان يتشابه هو وأخته أم لا سيبقى يحبها حبا أبديا ، كان جناح يدرك أن الأخت هي نور الحياة ومشعلها ، مسكين هو من لايملك أختا.
أحس جناح بدموعه تنهمر على خديه
قليلا ما يبكي جناح
إنه لا يبكي إلا عندما تسود الدنيا بوجهه ، جفف دموعه ، وأدرك أخيرا أن أُفول الشّمس قد إقترب ، سمع وقع خطوات أقدام فإذا به يتفاجأ بأُخته حُذَام ، والأَخوين أوس وميلاء ، وباهي و إبنته ذبيان .

- باهي : ها أنت ذا ، أَحمدُ الله أننا إستطعنا الوصول إليك بفضل أختك ، إن لها قدرة للبصر خارقة للعادة ، استطاعت رؤيتك على بعد أكثر من سبعة أميال .
- قالت ميلاء بحماسة : أنت لم تر شيئا بعد ، هذا غيض من فيض وقليل من كثير .
- أوس : مابك يا أخي ؟ أ أنت بخير؟

صمت جناح ولم يقل شيئا

- حذام : هيا معنا يَا جناح طعام العشاء بانتظارك

في الأيام التّالية استمر باهي في عمله رغم امتعاض الجميع ، وكان قد خصص لكل واحد منهم مبلغا من المال ، كانت ذبيان تصرف نقودها في الألعاب والدّمى، أما ميلاء ففي الثّياب ، وزرقاء اليمامة في الكحل العربي الأصيل لولعها الّشديد به .

في أحد الأيام اقترب باهي من حذام وفي يده زجاجة صغيرة و أعطاها إياها

- حذام : ماهذا ياعم؟
- باهي : كحل ، سمعت أنك تحبينه كثيرا فتذكرت أنني أحتفظ بزجاجة
- حذام: هذا من لطفك ، شكرا لك
- باهي: لا شكر على واجب يا ابنتي ، بالواقع مازلت احتفظ بالزّجاجة من المملكة التّي كنت أعمل فيها ، كنت أعمل في القصر الملكي كطبيب ، و كنت أبتاع هذا الكحل للملكة شخصيا ، أعرف هذا النّوع جيدا ، إنه يقوي البصر.
- قالت حذام وهي تضحك : جازاك الله خيرا، لكنني أحب الكحل لأنه يذكرني بأمي التّي ماكان يفارقها ، الكحل بالنّسبة إلي أعمق بكثير من أي عادات وتقاليد أو وسيلة زينة ، إنه تراث منغرس في أعماق كياننا.
- قال باهي : وهل كان لدى أمك قدرة خارقة على البصر أيضا؟
- ضحكت حذام وقالت : لا ، لا أعتقد هذا يا باهي
- باهي : ليست وراثة إِذًا

- حذام : نعم ، ليست وراثة ، هي أشبه بالمعجزة ، إن الله قد استجاب دعاء احدى عباده الصّالحين

وقصت عليه القصة

* *

كانت حذام تشعر بالتوترالذّي يجتاح أخاها وعندما كانت تسأله عن السبب كان يتهرب من الاجابة حتى سمعت في احدى الامسيات نبرة صوت حادة

- جناح : لقد قلت كلمتي ولن أتراجع عنها يا أوس ، لن أبقى مقيدا أسير ذلك المحل اللّعين ، لقد قيدنا و أسرنا وحجب عنا رؤية الحياة، نحن ندور في حلقة مفرغة، منذ سنوات ونحن نعمل ومازلنا كما بدأنا .
- أوس : أ أصابك الجنون؟ ما الذّي دهاك ؟ ما الحل برأيك أيها الأخرق؟ أ نستسلم للفقر إذا ؟ إن رغد العيش لن يسعى إليك يا صديقي بل أنت من يجب عليك السّعي له .
- جناح : أنت لا تفهمني ، انظر مثلا إلى باهي ، استطاع في فترة وجيزة جني مبلغ جنيناه نحن في سنة بشق الأنفس .
- أوس : لا أضعه قدوة لي ، إنه يخدع النّاس

لم ترد زرقاء اليمامة اكمال التّنصت على الحوار وابتلعت غصة حلقها وراحت تفكر في حل لمشكلة شقيقها .

تركت زرقاء اليمامة البيت الذّي كان يعج بزبائن باهي وخرجت لبعض شأنها، فرأت امراة تصرخ في فزع ، لم تكن بحاجة لسؤالها عما بها لأنها رأت ابنها الشّاب يصرخ ألما وبجواره أفعى ميتة ، أرادت زرقاء اليمامة المساعدة بأي

وسيلة كانت فتذكرت انها سمعت أن باهي كان طبيبا ماهرا ، كانت الام تصرخ بهستيرية ما دفع حذام أن تركض نحو البيت متجاهلة ذلك الكم الغفير من الحشد لدى باهي وصرخت مطالبة اياه ان ياتي بسرعة وينقذ ذلك الشّاب من أنياب الموت ، ركض باهي بسرعة صوب الشّاب المصاب ولحسن الحظ فإن مكانه لم يكن يبعد كثيرا عن المنزل ، اقترب منه باهي وحاول تحسس مكان الاصابة فوجدها في ساقه ، تحسس حوله فاكتشف أنه نسي حقيبته الطّبية ،

أمر حذام بأن تحضر الحقيبة فسارعت نحو المنزل بينما هو أمسك السّاق المصابة وأخذ يحاول إخراج السّم بفمه ، وصلت حذام أخيرا محضرة معها الحقيبة ، فتحها فأخرج منها الثّوم وأخذ يمسح به على الجرح بمكان الإصابة، ثم جرح مكان لسعة الثعبان بسكين غير مبالي بصرخات الشّاب والام التي كانت تشد على شفتيها حتى انفجرتا دما وتتوجع مع كل صرخة ألم كان يطلقها ابنها، ثم اجبر باهي الشاب على شُرب شراب الثوم والملح ، ثم حمله الى بيته الذي لم يكون بعيدا وقال:

سيتحسن بعدة مدة يا سيدتي ، سآتي للاطمئنان عليه فيما بعد، حالته ليست خطيرة أبدا ليس هناك ما يدعو للخطر اطمئني

- قالت المراة بصوت متقطع : شكرا ياسيدي ، كم أجر عملك ؟
- قال باهي مستديرا نحو الباب : لا شكر على واجب سيدتي ، لا ، لا أريد ثمنا ، يكفيني شفاء الصّ .
- قالت الأم بعينين دامعتين : بارك الله فيك يا سيدي سنبقى مدينين لك طوال حياتنا

فتح الشّاب عينيه مصارعا الألم و تفحص باهي مليا بعينيه الحادتين وقال : أقدر صنيعك يا سيدي سأتذكر ما حييت أنك أنقذت حياتي

واصل باهي زيارة الشّاب باستمرار إلى أن شفي وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياة الأصدقاء ، إذ أن صيت الطّبيب باهي انتشر كثيرا في المدينة بفضل خبرته ودمه الخفيف ، وتحول دكان الأقمشة المنزوي الهادئ إلى عيادة تفوح برائحة الأعشاب الطّبية و آمال المرضى وأصبح يعمل فيها كل من حذام و ميلاء وأوس وجناح وذبيان .

لعل أجمل الذكريات في لدى حذام هي تلك الأُمسيات التّي يجتمع فيها الأَصدقاء بعد عناء تعب عمل يوم طويل ، و ذات مرة تذمر باهي لأنه احتاج الى بعض النّباتات البرية ولم يجدها .

- **ميلاء : ما رأيكم بشجرة الدّر؟ إنها الأنسب برأيي لمثل هذه الاحتياجات**
- **قالت ذبيان : وكيف لشجرة واحدة أن تفي جميع إحتياجات أبي؟**
- **قال أوس بتهكم : إنها غابة تسمى بهذا الاسم**
- **قالت ذبيان : اسم غريب ، من سماها بهذا الاسم؟**
- **قال أوس بعصبية : أنت كثيرة السؤال !!فيما ستنفعك الاجابة**
- **قالت حذام بلوم : أوس !! لا تكن نزقا ، دع الصّغيرة وشأنها ، أتودين يا جميلتي أن تعرفي أصل التّسمية ؟ وكيف سميت غابة جميلة فيها نباتات نادرة باسم شجرة واحدة ؟ في الحقيقة هي ليست شجرة بل أميرة أميرة جميلة..**
- **قالت حذام بعفوية : هذا جميل ! أحب الأميرات ! نعم قصيها علي من فضلك**
- **قالت ميلاء : دعوني أقصص الأسطورة أرجوكم أحب رواية الأساطير**
- **قال جناح : تتصرفين بطفولية يا ميلاء أنت كبيرة!!**
- **قال أوس : أ رأيت؟ أتعبتني هذه الفتاة حقا**
- **ميلاء : تريدان الشّجار؟**
- **حذام : هيا دعيك منهم ، ألن تقصي الأسطورة؟ أنا متشوقة لسماعها بصوتك .**

وبدأت ميلاء تقص الأسطورة على النّفر وهم ملتفون حول موقد من النّار و ألسنة اللّهب تلعب على وجوههم لعبة الظّلال والنّور :

كان يا ما كان في قديم الزّمان وسالف العصر والأوان حتى كان ؛ عاشت فتاة اسمها طلائع في بلاد العرب ، و تحديدا في مملكة اسمها مملكة المزن وهي مملكتنا نحن ، كانت فتاة من الطبيعة ، فكان يخيل لمن يراها أن الطّبيعة التحمت وتجسدت في صورتها ، كانت فتاة هادئة كهدوء اللّيل ،

وجميلة جمال أزهار الرّبيع ، يقال أن شَعرها أشبه بدُجى اللّيل ، أما عيناها فكانتا كعيون الرّيم وصُبَت فيهما قهوة لتزيدهما جمالا على جمال ، كانت هذه الفتاة تعمل خادمة في قصر المدينة لضيق ذات اليد آنذاك ، ولجمال وجهها وروحها أُعجب بها حاكم المدينة فتزوجها زوجة ثانية ؛ وبهذا ثارة ثائرة الأسرة الحاكمة، أنّى لملك أن يتزوج بخادمة؟؟!!

وضعت الغيرة أعشاشها في قلوب أفراد القصر ؛ من خدم وحشم و وزراء ، إلا أن الزوجة الاولى كان تُكن كرها خاصا لطلائع ، لكن ماكان بيدها حيلة مادام الملك على قيد الحياة، ذات يوم أنجبت طلائع فتاة إذا رآها القمر احتجب، واذا راتها النّجوم انسحبت ، واذا رأتها الشّمس انحنت ، وقيل أن كل من رآى الصبية قال بسم الله ماشاء الله كأن البنت أخذت شطر الحسن ، وكان اسم الفتاة شجرة الدّر ، ذات يوم خرجت طلائع متسللة من القصر لتتجول لأن هذا كان ممنوعا في قانون القصر الملكي، وبما انها كانت سابقا فتاة عادية فإنها لم تستطع تحمل القوانين الصارمة إذ أنها لم تعتد عليها ، وبينما كانت تمشي إذ ابصرت عجوزا تتسول ، فتذكرت أيام فقرها السوداء فرثت لحال المسكينة، لكنها لم تكن تملك ما تجود به عليها سوى زجاجة مسك فاخرة ، قدمتها طلائع للعجوز وأخبرتها أنها لو قامت ببيعها فستجني أموالا طائلة ، وكتقدير من العجوز ، رفعت يديها الى السّماء وقالت : " الله اجعلها وذريتها مسكا مباركا " رغم غرابة الدعاء الا ان طلائع ابتسمت بامتنان ، فقد كانت تحب

دعوات الخير الصّادقة كثيرا و تشعر بتأثيرها في حياتها و تشعر بها تسري في عروقها .

توالت الأيام ولم تستطع الزوجة الأولى تحمل المزيد ، فقررت دس السم في طعام طلائع ، وبعد العديد من المحاولات نجحت أخيرا وتوفيت المراة ضحية الحسد والغيرة ، وحزن الملك عليها حزنا شديدا، وقيل أنه بجنازة الملكة كانت رائحة المسك الزّكية تغزو الأرجاء .

استجاب الله لدعاء العجوز فأصبحت شجرة الدّر تفوح برائحة المسك الزّكية ، فكانت إن مرت بمكان ما بقي أثر ريحها الطّيب وطرا طويلا من الزّمن .

بعد وفاة الملك طمعت الملكة بالبلاد فطردت شجرة الدّر ، فطغت في الب لاد وأكثرت فيها الفساد ، لم تتحمل شجرة الدّر الاضطهاد أكثر فأسست عصابة من المضطهدين و قاموا بالاحتجاج على الأحوال السيئة ، وعندما أرادت الملكة الشّريرة قتلها هربت إلى الغابة فاهتدت اليها الملكة بسبب ريح المسك الطّيب التّي تتميز بها شجرة الدّر وقتلتها ابشع قتل ، في صباح اليوم الموالي وجد جميع من بالقصر ميتا ، اختلفت الروايات ، فيقال ان روح شجرة الدّر اتت للانتقام ، ويقال ايضا أن عقاب الله حل بهم فنزل عليهم وباء فتك بهم ، ولكن الرّواية الأشهر هي أن جماعة مجهولة انتقمت لشجرة الدر ، فيما بعد تمت تسمية الغابة باسم الأميرة المغدورة ، ويقال أن شجرة الدّر هي سبب الرائحة الذّكية المنتشرة بالغابة.

- حذام : يا الله كم أحب الأساطير !!
- ذبيان : قصة رائعة
- أوس : لكن هناك شيء يحيرني ؛ لا بد أن هذه القصة حدثت منذ القصة حدثت منذ مدة طويلة ، كيف بقيت الحكاية منتشرة عبر العصور؟!

- باهي : الرّواة ، الرّواة يا بني ، إن الأساطير تنتقل من الأجداد إلى الأبناء فالأحفاد وهكذا دواليك ، وأنا أرى أنك يا زرقاء اليمامة ستصبحين أسطورة العرب ، سيقال عنك ؛ الفتاة التّي تبصر الشّعرة البيضاء في الجبل ، والمسافر على بعد عدة أيام وليال .
- ميلاء : رائع إنك محظوظة يا فتاة ،أ سيتذكرني التاريخ أيضا؟!!
- أوس : بالطّبع ، لا بد أنه سيقال عنك الفتاة الثّرثارة، سيضاف اسمك الى قائمة مشاهير العرب يا فتاة ، تخيلي سيكون اسمك بجوار اسم حاتم الطّائي
- ميلاء : أنت لست مضحكا
- حذام : محظوظة ؟ ربما
- جناح : أختي بطلة بحق

انصرف أوس و ميلاء وخلد الجميع للنوم

في الصّباح استيقظ الجميع للنّوم على صوت طرق عال ، فتح جناح الباب فإذا به يتفاجأ بأوس وميلاء حاملين العديد من الحقائب

- أوس : مرحبا
- جناح : ما الذّي أتى بك في مثل هذه الساعة؟ الشّمس لم تشرق بعد يا رجل ، لما هذا الطرق العالي؟ لقد كدتما تكسران الباب
- أوس : بالطّبع لأننا كنا نعلم أنكم نائمون
- جناح : يا سلام كنتما تعلمان أننا نائمون وفوق هذا أصررتما على الازعاج ، ما الذي تريدانه؟
- أوس : لا حاجة لتذكيرك أننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة ، صحيح؟
- جناح : لا حول ولاقوة الا بالله أ أتيت لتخبرني هذا ؟

- ميلاء : ألن تدعونا للدّخول ؟
- أوس : لا نحتاج دعوة سندخل رغم أنفه

قالت حذام وهي تطل برأسها من غرفتها و لا تبدو صاحية تماما ، من ميلاء وأوس؟ ما الذّي جاء بكما ؟

قالت ميلاء بإلحاح : بالله عليك يا أوس اشرح لهم الأمر وأرحنا

- أوس : حسنا حسنا ، كما تعلمون أن والدي مدمن على القمار ، وخسر أمس مبلغا ضخما فاضطر لبيع البيت ، وسنقيم مؤقتا ببيت جدتي ، لكنني و ميلاء واثقان أننا سنقيم به إلى الأبد ، وهذا ما يقتضي أن ننحشر جميعا في غرفة واحدة ناهيك عن الأعمال الشاقة التّي تنتظرنا أنا وميلاء ، وفجأة تذكرنا جيراننا الأعزاء فقلنا أنه من المؤكد سيستقبلوننا .
- ميلاء : ستستضيفوننا صحيح؟
- حذام : بالتأكيد ، بالبيت بيتكم
- جناح : أنا أكبر منك بأربع سنوات وخمسة أشهر وأسبوع ويومان وخمس وعشرين ثانية ، لذا أنا من سيقرر
- قالت ذبيان وهي تطل بعينيها الصّغيرتين بفضول : وعددت الثواني؟
- قال جناح : لا بالطّبع لكنني أحسست أنها مناسبة لحرارة الموقف
- أوس : لن ننتظر قرارك يا صديقي الجميل سنقاسمكم المنزل
- جناح : تبا لكم ادخلا
- أوس : لأنك صديقي سأتجاهل ما قلت

ضحك جناح بقوة وعانق صديقه و همس قائلا " أصدقاء إلى الأبد " .

أصبح المنزل الصّغير الذّي طالما قال عنه جناح أنه لا يسع شخصا واحدا يضم ستة أشخاص ؛ ميلاء وحذام وذبيان في غرفة ، و أوس وجناح وباهي في الغرفة الأخرى ، أعجبت زرقاء اليمامة بالوضع كثيرا ، إذ أن الوحدة التّي طالما كانت تشعر بها تبددت ، إن الوحدة هي أقسى ما قد يعيشه المرء ، إن أسوء شعور هو شعور أحد بالوحدة في هذا العالم الصّاخب المليء بالمخلوقات، فهي تخلق عوالم كثيرة قد تؤدي بالمرء إما الى العبقرية والابداع او نحو الجنون والموت ، كان جناح يرى أن الوضع أصبح سخيفا لأنه اعتاد الهدوء ، كما أنه سئم من تقلبات أوس وركله له أثناء النّوم وهذيان باهي ،اذ انه اقسم ذات مرة أنه سمعه يهذي بكلمات خُيل إليه أنها كلمات استحضار مخلوقات من العالم الآخر وكان جناح ينتظر ان يظهر الجني فعلا ، لكن تبين فيما بعد ان تلك كلمات من لغة ميتة كان يتقنها باهي .

ذات يوم قرر باهي أخيرا محاربة الكسل والذّهاب إلى غابة شجرة الدّر ، فإذا به يفاجأ بالجميع يجهزون أنفسهم

- صرخ جناح قائلا : ماذا؟!! سيذهب الجميع إلى الغابة؟!
- أوس : سنبدوا كموكب سخيف، سيظن الجيران أننا مهاجرون .
- باهي : وستسعى غوبية للاستيلاء على المنزل
- ضحكت حذام وقالت : أضحى باهي يعرف جميع سكان المدينة في وقت وجيز .
- قالت ميلاء بحزم : حضور زرقاء اليمامة ضروري ، بحدة بصرها ستساعدكم على ايجاد الأعشاب الطبية ، وبمناسبة أنني وذبيان صديقتان

لحذام فحضورنا أيضا ضروري .

- قالت ذبيان مؤيدة : نعم هذا صحيح
- قالت حذام مصرة : أنا لن أذهب من دونهما
- قال جناح مستسلما : حسنا حسنا ، يمكنكن المجيء جميعا
- قال باهي متصنعا التّخوف : وان عدنا و وجدنا غوبية قد استولت على المنزل فلا تلوموا سوى أنفسكم

أشرقت الشّمس وتربعت كبد السّماءِ لتبدو كملكة بين الغيوم ، كان النّسيم هادئا شافيا للنّفوس ، في هذا الوقت من السّنة بدأت الأزهار تتفتح معلنة بهذا قدوم فصل الرّبيع ، غزا الجو أريج لمزيج مختلف من روائح الزّهورِ مشكلا عطرا سماويا نادرا برائحة محببة للنّفوس ، وبدورها بدأت العصافير تعزف ألحان الصّباح المميزة، استيقظ الأصدقاء السّتة وانطلقوا نحو غابة شجرة الدّر ، كان جناح متعبا و متذمرا لأنه لم ينم جيدا بسبب تقلبات أوس وهذيان باهي .

ظل باهي يصف الأعشاب لزرقاء اليمامة طوال الطريق لكي تتعرف عليها ، أما ميلاء وذبيان فقد ظلتا تثرثران بحيوية طول الطّريق وتقطفان الأزهار بسعادة غامرة ، بعد مدة استطاعت زرقاء اليمامة أن تساعدهم على جمع عدد كبير من النّباتات الطّبية ، و طول الطّريق ظل باهي يردد كلمات الشّكر والامتنان والتّقدير لحذام .

أخذت حذام تتجول في الغابة بينما الأصدقاء يرتاحون، فجأة لمحت كيسا ساقه ماء الجدول إلى الضّفة ، أثار الكيس اهتمام حذام ، و أخذت تحدق به ،احست نحوه بفضول غريب إذ أنها لم يسبق لها ان رأت كيسا مثله ، لقد كان يبدو لها مصنوعا من الجلد الأسود الفاخر ومحاطا بزخرفات غريبة تعكس ثقافة غنية ، شعرت حذام أن الكيس الأسود يخفي غموضا وعُمقًا و أسرارا ، وترجم عقلها اللاواعي أن الأمر لغز وسر عليها اكتشافه ، لم يكن الامر مجرد كيس بالنّسبة اليها فالأشخاص الذّين يملكون ذكاء وفلسفية في نمط تفكيرهم يترجمون الأشياء دائما بطريقتهم الخاصة ، دائما مايسعى عقلهم لترجمة الأحداث والوقائع و رؤية الأحداث بزاوية مختلفة ، و هكذا ترجم عقلها الكيس إلى رمز لحمل الأعباء والأسرار.

عادت حذام إلى رفاقها و شرد بالها بعيدا عنهم ، وكانت تفكر بذلك الكيس الذّي جعل بالها يطرح آلاف التّساؤلات حول الخفاء والمجهول ، كان جانب ما من حذام يميل للتّعلق بالمجهول والميل للمغامرة والرّغبة في الفهم والاكتشاف ، وجراء هذا الفراغ المعرفي ، بدأ عقلها في ملئ الفراغ بالخيال والإحتمالات ، وانتهى الأمر بالنّسبة اليها بفكرة غير مكتملة ،و عادت ذاكرتها تصور لها ذلك الكيس الأسود المُهمل والغامض ، ثم بدأت تحلل الوقائع ، بالرّغم من أن الرّياح لم تكن ساكنة بذلك اليوم إلا أن الكيس لم يكن يتحرك ، مما يدل على أنه يضم محتوا ثقيلا ، بالإضافة إلى أن الكيس كان متخذا شكلا أشبه بالهندسي الغريب مما يعكس محتواه ، كان شكله مرتفعا نسبيا ومتعرجا ، ترى مالذي يخفيه ذلك الكيس في ذلك الموقع الغير متوقع؟!!

هي لم تكن تستطيع الجزم من دون التأكد فما تراه قد لايكون الحقيقة ، فالكيس هو في الأخير مجرد غلاف لشيء مخفي ، الكيس لا يعرف بما يبدو بل بما

يخفي ، واصلت زرقاء اليمامة التّفكير بالموضوع الغامض و فضولها يعصرها عصرا لأنها لم تستطع معرفة أو رؤية ما بداخله رغم بصرها الخارق فالكيس كان يغطي الشيء الذّي بداخله من كل الجوانب وظل الأمر بالنّسبة لها مجهولا و مليئا بالأسرار

قطع تفكيرها صوت ذبيان الطّفولي : ما بالك يا زرقاء اليمامة ؟ شاركينا الحديث ، بما تفكرين؟

- قالت حذام :و فيما كنتم تتحدثون ؟
- قال أوس بلكنة ساخرة : أنت في عالم ثان
- قال باهي مستفسرا : ليست من عادتك يا زرقاء اليمامة يا ابنتي ما الذّي يشغل بالك؟
- قالت حذام : في الواقع الأمر ربما يبدو تافها
- قال جناح : قولي يا حذام قولي
- قالت حذام : حسنا في الواقع إنني أبصرت كيسا أثار اهتمامي
- قالت ميلاء ساخرة : كيس؟ أكيس هو الذّي سبب شرودك يا زرقاء اليمامة ؟!
- قالت حذام : ليس كيسا عاديا ، إنه كيس من الجلد الأسود الفاخر محاط برموز غريبة ، أحس أنه يخفي أمرا جللا
- قال أوس ساخرا : دعيك منه يا زرقاء اليمامة ، مجرد كيس سلب عقلك؟!
- قالت حذام وقد أثر بها ما قاله أوس : ليس مجرد كيس!! قد ابصرت مالم تبصروا و تنبات بما لا تعلمون
- ابتسم أوس ابتسامة ساخرة وقال : هراء

احتشدت عينا حذام بالدّموع ولم تجد ما تقوله ، هنا ثار جناح وانتفض وقال: حذام!!! تبكين؟!!

ماذا قلت لك مرارا وتكرارا
هيا أوقفي الدّموع ياجميلتي ، أنت كبيرة على البكاء ،أين هذا الكيس لأجلبه لك؟
وصفت حذام موقع الكيس بسعادة غامرة و وجده جناح أين وصفته شقيقته بدقة .
لمح آثار خدوش على الكيس وبقع دماء، تسارعت دقات قلبه و أنبأه قلبه أن الأمر خطير، كاد يتراجع للوراء لكنه تذكر أخته ،هو لم يرد ان يكسر بخاطرها ، وما زاد اصراره على اسعادها هو كلمات أوس الساخرة ، لم يعلم جناح مصدر الصوت الداخلي الذي أنبه بخطر الكيس ، كان يعلم تماما أنه يسوق نفسه الى مشكلة عظيمة لكنه لم يبالي
أمسك الكيس وأحس بوزنه الثّقيل ، هم بفتحه لكنه لم يرد افساد المفاجأة على أخته لعلمه بفضولها الكبير،امسك الكيس و ركض نحو اخته ، وصل الى اصدقائه وهو منهك من التعب ويلهث ، ثم جلس على ركبته وفتح الكيس امامهم
وهنا كانت المفاجاة
لقد كان تاجا من الذّهب الخاص تزينه المجوهرات من كل الجوانب فتح الجميع أفواههم من الدّهشة ، تاج مثل هذا لا يكون الا للملوك والاباطرة العظماء
تخالجت آلاف الأسئلة في أذهانهم
لمن هذا التاج؟
كيف وصل الى ذلك المكان؟
تفحص باهي آثار الدّماء بالكيس والخدوش وقال : لا بد أن جماعة تشاجرت بشأنه ، ياترى أيكونون تركوه عمدا أم أنه سقط منهم ؟
- قالت ذبيان بسذاجة : من الممكن أن الدّماء والخدوش لحيوان بري والتاج ضائع منذ مدة طويلة وهو نصيب من يجده؟

- قال باهي : هذا دم بشري ، لا يمكن أن اخطئ دماء البشر فهي مجال عملي .
- قالت ذبيان مصرة : كيف استطعت ان تعلم ؟
- قال باهي : انظري ؛ لونه أحمر داكن وقوامه لزج وسميك نسبيا وهذا مايدل على ان الدم سُفك قبل مدة وجيزة

ثم قرب الكيس الى انفه وقال : له رائحة معدنية خفيفة ، ثم دقق وقال انه متجلط ، على حسب علمي دم الحيوانات يتجلط بعد مدة طويلة جدا ، ثم تنهد وقال : هو دم بشري يا أبنائي ، الله وحده يعلم قصته ، لكنني اعلم ان الأقدار وحدها من ساقتك اليه يابنتي حذام .

في غابة شجرة الدّر ، وفي مكان كثيف الأشجار كثير الأزهار ، شكل ستة أشخاص حلقة حول موقد من النّار و ألسنة اللّهب تلعب مع وجوههم لعبة الظّلال و النّور ، كان الرّفاق جالسين غير آبهين باللّيل الأدهم الذّي يثير الوحشة في النّفوس ، ارتسم على محيا كل واحد منهم علامات الحيرة والقلق والخوف .

في حجر فتاة زرقاء العينين محاطتين بكحل عربي أصيل ، تغطي شعرها بوشاح يصرخ عاكسا مبادئها والتزامها كان هناك كيس جلدي أسود اللون.

- قالت ميلاء : لو بعناه سنعيش مثل الملوك
- قالت ذبيان : نعم ، من الواضح أنه يساوي ثروة ضخمة ، شكرا لك يا زرقاء اليمامة.
- قال باهي : الموضوع ليس بهذه البساطة ، قلبي يخبرني أن لهذا التّاج قصة عظيمة
- أوس : الأمر محير بالفعل ، أتوجس شرا من هذا التاج
- قالت ميلاء : كفاكم تشاؤما
- قال أوس : لا تكوني غبية ، لايغرنك الطمع يا أختاه ، أ فكرتي لما على هذا الكيس الخدوش؟ أ فكرتي لمن هذه الدماء؟
- قالت حذام : أتفق معك يا أوس
- جناح : أ تستطيعين إبصار مكان التاج يا حذام ؟
- قالت حذام : نعم يا أخي ، و جميع الأماكن المحيطة به لكنني لم أبصر شيئا غريبا
- قالت ذبيان مدهوشة : و تبصرين في الظلام ؟
- قالت حذام وهي تضحك : نعم يا حلوة
- قالت ميلاء : من الممكن أن يكون صاحب الدّماء قد مات

- قال جناح : و إن كان قد مات ، فمن قتله حسب رأيك ؟
- قالت ميلاء : موت شخص لا يعني بالضّرورة أنه قد تم قتله
- رد جناح : و أين الجثة إذا ؟
- قالت ميلاء : أ تبصرين شيئا يا زرقاء اليمامة ؟

هزت حذام رأسها نافية

- قالت ذبيان محاولة تأييد ميلاء التّي كانت تحبها كثيرا : ربما النّهر هو من أخذ الجثة
- قال جناح : لم يكن مجراه يجري بالشّدة اللازمة
- قالت ذبيان : ربما تم رميه
- قال أوس : احتمال وارد
- قال باهي ، آلاف الحتمالات موجودة ، لايمكننا الجزم بشيء والله ، احتمال ضياعه شبه مستحيل لأن التاج ثمين جدا وصحبه إن أراد عدم ضياعه فسيحرص على أن يخبئه في مكان آمن ، وحتى وإن ضاع فلرأته زرقاء اليمامة يبحث عنه.
- قال جناح شاردا : حدسي يخبرني أننا سنورط أنفسنا بالمشاكل إن نحن احتفظنا به ، أرى أن نعيده إلى مكانه فنسلم شره
- قالت حذام : رأيي من رأي أخي .
- ثم ذهب جناح ليعيده إلى مكانه و أصرت ذبيان أن تذهب معه .

عاد الأصدقاء إلى المنزل و غطوا في نوم عميق
في اليوم التّالي استيقظت حذام باكرا جدا ، ثم انتبهت الى أن ذبيان غير موجودة بمكانها فقلقت عليها لأنها تنام تستيقظ في ساعات متأخرة ، خرجت زرقاء اليمامة لتبحث عنها فوجدتها في الحديقة وبيديها آثار تراب ، قالت حذام :
ذبيان ما الذي تفعلينه لقد قلقت عليك
اندهشت ذبيان و تعلثمت وقالت : كل..كلا.. لا شيء.. مالذّي اتى بك يا حذام؟

- قالت حذام : ما هذه الآثار على يديك كأنك كنت تحفرين ؟
- قالت ذبيان بثقة : كنت ألعب
- قالت حذام : تلعبين ؟ لم أشاهدك تلعبين من قبل ، وتعلبين في هذه الساعة؟

انتبهت حذام لنفسها أنها تصر وتلح بالسؤال وربما تحرج ذبيان أو تجعلها تتحسس وتشعر بعدم الرّاحة والذّيق فقالت لها بمرح لتتدارك ما بدر منها : حسنا ما رأيك يا أختي أن نحضر الطعام معا؟
في الواقع كانت ذبيان تشعر بالضّيق زرقاء اليمامة لكن وقع كلمة "أختي " أنساها الضّيق الذّي كانت تشعر به .
أصبح البيت يعج بالفوضى الحيوية في الآونة الأخيرة ، في مساء أحد الأيام ملأت ذبيان المنزل بصراخها بسبب ظهور تورمات على مستوى ساقها ، أكد لها والدها أنها مجرد حساسية وستزول مع الوقت لكن الفتاة أصرت على أنه مرض خطير ، وذات صباح كان جناح يقسم لميلاء و حذام اللتان كانتا خارج المنزل ذلك اليوم أن أكثر من عشرين شخصا أتى إلى المنزل لكي يقرأ لهم باهي كفوفهم وعندما رفض رشاه أحدهم بمبلغ خيالي حتى كاد أن يستسلم لكنه انصاع الى اعتراض أوس وجناح ، كانت ميلاء وحذام وذبيان تثرثرن

بحيوية طول اليوم مالئات البيت بالكلام الذّي انزعج منه أوس كثيرا و أصر جناح أنه غيبة ونميمة ، كانت حذام مسرورة بالتغير الذّي طرأ على نمط حياتهم لأن وحدتها تبددت أخيرا وبدأت تشفى من آلام الماضي ، فما الوحدة سوى أصفاد تكبل المرء ، وما الماضي سوى سراب يلهيك عن المضي قدما ، جناح الذّي كان معتادا على الهدوء أقسم على أنه سيجن ذات يوم من الضّجيج.

ذات مساء ،أرهق الجميع من العمل فغطوا في سبات عميق ماعدى جناح الذّي انقبض قلبه و توجس شرا ، و أخبره صوت ما أن الهدوء الذّي يحيط بالمنزل هو الهدوء الذّي يسبق العاصفة

في بعض الأحيان يعتري المرء شعور هو أشبه بالتّنبئ ... لا ينبغي على المرء أن يستهين بهذا الشعور أبدا..

في صباح اليوم التّالي ، كان الأصدقاء يتناولون قهوتهم بهدوء ، حتى كسر الصّمت طرق عنيف ، نهض جناح ليفتح الباب وهو يتوعد الطّارق ، عندما فتح الباب وجد مجموعة من الحرس الملكي ، تكلم معه رجل يصرخ وجهه بعلامات الذّكاء الحاد وقال له :

مرحبا سيدي ، نعتذر على الإزعاج في مثل هذا الوقت ، نحن حراس الملك وقد أُمرنا بتفتيش جميع بيوت المدينة بحثا عن تاج ملكي سرق من سيدنا الحاكم لذا اخرجوا من المنزل لو سمحتم واتركونا نفتشه

امر جناح اصدقاءه بالخروج وهم في سعادة غامرة لأنهم لم يجلبوا التّاج معهم سوى ذبيان التّي تكومت في زاوية

خرج الجنود من المنزل بعد ان فتشوه وهموا بالانتقال الى بيت آخر ، لكن رئيس الحرس انتبه الى شيء ما في أرضية الحديقة ، تحديدا في جزء لم يغطه النّبات على عكس الأماكن المحيطة به مما يدل على أنه قد تم حفر

المكان ، أخذ يقلب التّربة و وجد كيسا جلديا أسود فاخرا تحيط به نقوش تعكس ثقافة غنية .

* * *

استيقظت حذام على أثر صداع عظيم وأحست أن رأسها يوشك على الإنفجار، تمعنت في المكان فكان أشبه بقطعة من جحيم دنيوي ، هي لست في غرفتها ماهذا المكان؟
حاولت بصعوبة أن تعيد شريط الأحداث ، فاسترجعت آثار ذكريات مشوشة ، تذكرت مشهد قائد الحرس وهو يصرخ :"وجدته إنه هنا " فأسرع الحراس يكبلونهم جميعا وهم ينهالون عليهم ضربا ثم لم تتذكر شيئا سوى الظّلام تمعنت حولها فرأت خمسة أشباح بشرية ، هي لم تكن تؤمن بالأشباح ، لكنها استسلمت للواقع ، نعم ربما يكونون فعلا أشباحا ، أحيانا يرى المرء أشياء غير قابلة للتّصديق لكن الواقع يفرض عليه تصديق ما رآه ، ربما العقل يجعلك تتوهم أشياء في الظّلام لا صحة لها لكن العين وحدها لا تكذب
أمعنت زرقاء اليمامة التّحديق بأشباه الجثث المحيطة بها وأحست أن النّظرات هذه مألوفة بالنّسبة إليها ، مهما تغير الإنسان وتفنن الزمن بالتّنكيل بملامحه إلا أن في تقاسيم وجهه تبقى أشياء مميزة ثابتة تمكننا من التّعرف عليه ،

أدركت زرقاء اليمامة هوية الأشخاص المحيطين بها ، نعم أنهم أصدقاؤها ، أمعنت النّظر إليهم وهي تحاول الإجابة عن سؤال مهم

هل هم ميتون حد الحياة أم أحياء حد الموت

و أخيرا خرجت الكلمات من فم حذام : أين نحن ؟ ما الذّي حدث ؟

- قالت ميلاء بصوت لا يكاد يسمع : و أسفاه يا حذام ، التّاج يا حذام التّاج
- حذام : مابه التّاج ؟ لقد تركناه بالغابة
- ردت ميلاء : أوحى عقل الصّبية ذبيان أن تعود إلى المكان الذّي وضعته فيه مع جناح وقامت بدفنه و وجده رئيس الحرس ويعتقد أننا لصوص الآن

وهنا تشكلت في ذاكرة ذبيان تلك الذّكرى .....

- قال أوس صارخا : تاج ملعون ما الذّي دفعك يا فتاة أن تعودي لأخذه

لم ترد ذبيان التّي كانت غارقة في بكاء هستيري عميق

لم تمنع قسوة الظّروف طيبة ميلاء التّي زجرا أخاها تذكره أنه وبخها كثيرا بعد ان اعترفت بما قامت به

- قالت حذام بغباء : و ما هذا المكان ؟

- رد حذام بنبرة تشي أنه بلا عقل : ما هذا المكان ؟ أ تسألين؟ أين نحن مثلا ؟ بقصر!! نحن في زنزانة بأعلى البرج الشّمالي تماما كالمجرمين ، وبعد أسبوع سنحاسب وسنكون في عداد الموتى تماما كالمجرمين !!

استمتعوا بآخر رمق في حياتكم !

أخرست الدّهشة حذام ، أيعقل أن يكون هذا واقعا ؟

الأمر أشبه حقا بكابوس مظلم ، مرت عليها كثيرا من الوقائع الوردية التّي كانت أجمل من أن تعيشها وإن عاشتها بالفعل لكن هذا الكابوس أبشع من أن

يتحقق ، في هذه اللّحظة تمنت أن يوقظها أخوها من النّوم ناعتا إياها بالكسولة

هل يكون هذا حلما مزعجا؟

لا ، لا ، إن الألم والمعاناة المرتسمة على الوجوه أبلغ من أن تكون موجودة بكابوس ، هي تعيش واقعا إذا

كادت تقسم في حوارها الدّاخلي أن باهي ازداد شيبا وازدادت تضاريس وجهه تجعدا ، و كانت ذبيان تبكي بصمت وعيناها قد احمرتا من كثرة البكاء وعلى وجهها البريء آثار كدمات وخدوش ، تمعنت في ميلاء فلم تجد صديقتها القديمة بل وجدت جثة وجهها أسود وخمارها انزاح ليكشف جزء كبيرا من شعرها البني ، رغم ألم أوس إلا أنه صرخ بهستيرية على أخته كي تعدل خمار شعرها

كان جناح متكئا بكل ثقله على الجدار عله يمتص شيئا من شوائب معاناته ، كان وجهه مكفهرا ، والهالات السوداء تحيط بعينه ، كان يبدوا هادئا لكن حربا طاحنة شعواء كانت تزعزع كيانه ، كان جناح يتمنى لو أنه يستحيل حقا إلى جناح ليطير بعيدا في الأفق

لن يطير وحيدا سيحمل أخته أولا ثم أصدقاءه

- صرخ أوس قاطعا الصّمت الرّهيب الذّي كان يغطي المكان : هذا بسببك يا زرقاء اليمامة! تبا لك ولبصرك!
- زمجر جناح قائلا : دعها يا أوس ، لن يفيد صراخك بشيء ، لقد قدر الله أمرا كان مفعولا
- قال أوس : تدافع عنها ؟!! كل هذا بسببها ، سنموت بسبب أختك يا رجل!
- قال جناح : نعم بسبب أختي ، يشرفني أن أموت بسبب أختي

هم أوس أن يرد لكن حذاما قاطعته : كفاكما ، الأمر كله بسببي ، هأنا قلتها الآن

- قالت ذبيان باكية : بل بسببي يا حذام ، فكرت أن التّاج سيجعلنا أغنياء فذهبت و أحضرته مرة أخرى
- قالت حذام : لا عليك يا صغيرتي لا تفكري بهذه الطّريقة

كانت حذام تعلم أن شقيقها يحبها كثيرا ويساندها دائما ، لكنها لم تتصور مساندة في ظرف مثل هذا و أدركت أنها تملك سندا دعمها عندما عصفت بها رياح الحياة

استطاع باهي أن يستدرج حارسا ساذجا للكلام فعلم منه أنهم سيبقون لفترة مجهولة في السّجن حتى يعود الملك كادح من إحدى الحفلات التّي تلقى الدعوة متأخرا ، فقد أرسل الوزير رسالة إلى الملك مفادها أنهم وجدوا لصوص التّاج فحرص على أن يحاكمهم بنفسه .

مرت الأيام ثقيلة على الأصدقاء الستة ، فاختلط عليهم الزّمن والزّمان والتّاريخ والأيام ، وصارت زرقاء اليمامة تسلي نفسها بالنّظر إلى النّافذة، فكانت بذلك تجد المتعة و السّلوى ، وكان كيانها يمتلئ سعادة عندما ترى وحوش الغابة والأزهار ، و لربما كان أحب شيء إليها هو رؤية تلك النّقاط المتبعثرة تزين دجى اللّيل وذلك القرص المضيء الذّي تحيط

به هالة سماوية من نور وهو يزين كبد السّماء

في صباح يوم مشمس ، أطلت حذام من النّافذة كعادتها ، فإذا بها ترى مشهدا سيقلب حياتها رأسا على عقب .

فركت عينيها بذهول لكنها استمرت ترى ذلك المنظر الرّهيب فظنت أن الأمر مجرد هلوسات سببها لها السّجن ، لكنها متيقنة أنها تتمتع بكامل

قواها العقلية ، لم يسبق لبصرها أن خانها ، عيناها لا تكذب أبدا ، نعم إنها ترى الحقيقة .

- قالت حذام هلعة : ويل للعرب من شر قد اقترب .
- قالت ميلاء مفزوعة : مابك ياحذام ؟ ماذا هناك؟
- قالت حذام : اني لأرى على مسافة أربعة أيام و ليلة جيشا عظيما محملا بالأسلحة ، وخلفه جيش أعظم منه على بعد مسافة عشرة أيام ، اني لمتوجسة شرا ، ما قدم هذا الجيش الا لحرب طاحنة .
- قالت ذبيان بخوف : و ما أدراك أنه قادم إلى هنا يا زرقاء اليمامة ؟ ربما له وجهة أُخرى
- قالت حذام : الجيش قادم إلى هنا لا محالة ، فمن الشّرق البحر ومن الغرب صحراء قاحلة جدباء من يدخلها مصيره الفناء .
- قال أوس بحدة : فلتصمتي ، الصّمت خير لك يا حذام ، أترين إلى ما أوصلنا إليه بصرك؟!

ثم أضاف ساخرا : هراء ، ما تتفوهين به هو الهراء يا زرقاء اليمامة ، لقد ولى واندثر زمن الحروب ، ربما تتخايلين يا زرقاء اليمامة .

- ردت حذام التّي كانت تعلم أنها تبصر الحقيقة : إنني أرى ما لا ترون و أعلم مالا تعلمون .
- قال جناح أخيرا : ابتعدي يا زرقاء اليمامة ، دعيني أرى يا أختي

أفسحت حذام المكان لأخيها لكي يبصر و تبعه أوس ، فأطرق جناح برأسه مفكرا بعجز ، هو موقن أشد اليقين أن زرقاء اليمامة تعلم ما لا يعلمون وتبصر ما لا يبصرون ، هي أخته حذام ذات البصر الحاد والذّكاء الخارق أيعقل أن يكون ما رأته سرابا ؟

كلا هذا غير ممكن ان أخته ترى الشعرة البيضاء في اللّبن بل في الجبل والشخص على بعد عدة أيام وليال
قرر جناح أنه سيساند أخته دوما
- قال أوس بحنق : لا أرى سوى الأفق
- قالت حذام منهارة : أقسم أنني أقول الحقيقة
- قال جناح بحدة : لا داعي للقسم أنا أصدقك يا حذام
- قال باهي متسائلا : هل كان الجيش الذّي رأيته يا حذام يحمل راية؟
- قالت حذام : نعم ، رايتهم زرقاء وفيها نقوش ذهبية
- قال باهي : راية الملك غضنفر ! أ سمعت بهذه المملكة؟
- قالت حذام : لا ، لم أسمع بها من قبل
و وقف قائلا : إنها ترى الحقيقة ، هذا ليس وهما أو سرابا ، لا يمكن لعقل حذام أن يصورها شيء لم تره من قبل ، علينا أن نفعل شيء ما بسرعة .
نهضت ذبيان بسرعة و أخذت تطرق الباب بشكل هستيري مثير للشفق وهي تصرخ : أيها الحراس !!! أيها الحراس !!
أزاحها جناح وبدأ بالصّراخ بصوت أعلى
جاء حارس بدين وقال بصوت غاضب : ويحكم !! ماذا دهاكم؟!
- قالت ذبيان بصوت منكسر : الحرب على الأبواب ! زرقاء اليمامة ترى جنودا قادمين ولا ريب أنهم سيشنون حربا شعواء على على مدينة

المزن .
- قالت ميلاء بقهر : نعم هذا صحيح .
ملأ الحارس الأرجاء بصوت ضحكه الهستيري المتواصل و قال :
لم أضحك هكذا منذ أمد بعيد ، أهذه خدعة لاستقطاب الانتباه؟! أو..ربما

لتلوذوا بالفرار أيها اللّصوص الخونة ؟!
- قال جناح بحزم : علينا انتظار الأيام القادمة
في الغد الموالي جاء حارس وفتح باب الزنزانة وقال :
لقد عاد الملك من سفره ، لقد آن أوان حسابكم .

* * *

في ضحى أحد الأيام اجتمع حشد غفير من النّاس ، وفي مصطبة عالية جلس الملك كادح و فوق رأسه تاج من الذّهب الخالص مرصع بالدّرر و الجواهر ، و على جانبيه أرباب الدّولة والوزراء جميعهم . وفي الأسفل اصطف ستة أشخاص ارتسمت على وجوههم أبشع معاني الخوف والقهر .
من أحد كراسي أرباب الدّولة نهض شيخ وقور وقد كان قاضي البلاد وكان اسمه حيدر .
وقال بصوت قوي موقفا الضّوضاء التّي كانت منتشرة بالمكان :
سكوت ! فليصمت الجميع الآن
اليوم و بحضور الشّهود و جلالة الملك والوزراء والمتهمين وكذاا عامة الشّعب ستقام محاكمة هؤلاء السّتة بتهمة سرقة تاج الحكم

الملكي من جلالة الملك حيدر ، إن الملك يقول أن التّاج قد سقط منه وهو يقوم باحدى جولاته في المدينة و هو لا يدري أين تحديدا
- همس أوس بصوت خافت : لأنه أحمق .

أكمل القاضي حيدر قائلا : و بشهادة الشّهود وهم الحرس الملكي الذّين أفادوا أنهم وجدوا التّاج محفورا في ساحة البيت أين يقيم السّتة فإن التّهمة الموجهة إليهم هي خيانة المملكة وسرقة التّاج الذهبي ، هل لديكم أي شيء تدافعون به عن أنفسكم ؟

انتفضت حذام وقالت : اسمي حذام يا سيدي أو كما أعرف بزرقاء اليمامة، واني لأرى الشّعرة البيضاء في اللّبن بل في الجبل ، والمسافر على بعد أكثر من عشرين يوما وليلة

- قاطعها القاضي حيدر قائلا : أتمزحين ؟!
- قالت حذام بحدة : اسئل الملأ ان شئت يا سيدي! قد تجد بهم من يعرفني و يؤكد صحة ما أقول

و هنا ارتفعت أصوات بعض من كانوا يعرفونها مؤكدين صحة قولها

- قال القاضي حيدر : مستحيل يا فتاة كيف تستطيعي...

وهنا قاطعه الملك بصوت حاد وقال : هيا يا كادح ، لا وقت لدي ، لقد بدأت أشعر بالملل

- قال القاضي : أعتذر يا مولاي
- ثم قال مخاطبا حذام : هيا أكملي
- قالت حذام : نحن لم نسرق التّاج يا سيدي القاضي ، ذات يوم ذهبنا إلى غابة شجرة الدّر فاستطعت ابصار كيس جلدي أسود من بعيد قد جرفه التيار الى الحافة فأخبرت الجميع بما رأيت فأحضر لي أخي الكيس فوجدنا

التّاج، وقد كان على الكيس آثار دماء بشرية وبعض خدوش، لكننا شعرنا بالخوف فأعدناه إلى مكانه والله على ما أقول شهيد

- قال حيدر : و بماذا تفسرين إيجاد الجنود للتّاج في ساحة منزلكم؟

- قالت حذام بخوف : في بيتنا صغيرة تقيم معنا أوحى إليها عقلها أن تعود وتحضر التّاج و تدفنه في المنزل ، وأيا كان قراركم يا سيدي القاضي فأنا من سأتحمل الحكم .
- صاح جناح بحرقة باكيا : بل فلتحاسبوني أنا ، فأنا من وجدت التّاج ولا مذنب غيري.

تسارعت دقات قلب القاضي الذّي كان يظهر الصّرامة لكن في أعماق قلبه قلبا حنونا مشفقا ، لم يكن هناك دليل يجزم بصدق الأخوين لكن قلبه أخبره أنهما صادقان ، من المستحيل أن تكون عينا الفتاة كاذبتين ولا صراخ أخيها الذّي صرخ من أعماق قلبه محاولا افتداء اخته .

- هنا صرخ الملك : هراء! ما هذه المهزلة ؟! أرى أن يقتل الجميع اذا
- قال القاضي بأدب : عذرا يا جلالة الملك ، ولكنني لا أعتقد أنه من الحكمة قتلهم جميعا ، هذا ظلم .

ثم قال موجها كلامه الى الستة ، حسب زعمكم التّاج كان في النّهر ، فما الذّي أخذه إلى هناك؟

- قالت ميلاء باكية : لا نعلم ، لا أحد فينا يعلم يا حضرة القاضي
- قال باهي هامسا لجناح : تبا ، ان تواصل الامر بهذا الشّكل فسيقتل الجميع ، على أحدنا التّضحية .
- وهنا صرخ جناح بجنون : انتهى الأمر ، لا مذنب غيري !

- قال باهي لجناح : اخرس ، لم يكن هذا ما قصدته ، ابنتي من جلبت معها التّاج وانا من ساتحمل المسؤولية

ثم صرخ قائلا : حضرة القاضي ، أنا من سرقت التّاج !

- قال القاضي حيدر متعجبا وقد التبست عليه الأمور : وكيف فعلت هذا ؟
فكر باهي مليا إذ أنه كان يدرك لو أنه أخطأ في أي تفصيل فسيكشفه أصدقاؤه ، نظر في عيني القاضي والملك والجمهور و أدرك أنهم جميعا ينتظرون منه الجواب ، فقرر أن يطلق العنان للسانه و ليقل ماشاء، فقال:
فلتعلم يا قاضي الزّمان أنني جئت من بلاد بعيدة وقد كنت قد جمعت مبلغا من المال ونفيس الجواهر ، وقد أغواني الطّمع فقررت سرقة التاّج بعد أن لاحظت سقوطه من عند جلالة الملك و قررت أن أضعه في ذلك المكان الذّي رأته زرقاء اليمامة لكي تكون القصة واقعية بالنّسبة إليهم و أستطيع التّصرف به بحرية.

بحكم عمل حيدر في مجال القضاء مدة طويلة شعر بخلل في القصة ، قلبه كان ينبئه أن باهي بريء فهم يطرح سؤالا استفساريا خطر بباله لكن باهي خشي أن يكون سؤالا مباغتا لا يستطيع الإجابة عنه فقال : سيدي القاضي أعتقد أنه قانونكم تطبيق الحكم على المتهم مباشرة بعد اعترافه ، وارجوا أن يتم هذا سريعا

- هنا صرخت ذبيان بجنون وقد كادت مقلتاها تخرجان من مكانهما :
جمعت مبلغا من المال ونفيس الجواهر ؟ لقد كنا عبيدا يا أبي ! لقد كنا عبيدا لا نملك ثمن افتداء أنفسنا ، لقد كنا خدما نعيش في الذّل تحت رحمة الأسياد الذّين لم يتركوا لنا شيئا نسد به فراغ بطوننا سوى حثالة لا تسمن ولا تغني من جوع .

اجتاح الألم نفس القاضي حيدر لهذا المشهد المأساوي وقال :
ما ردك على قول الفتاة يا سيدي؟

- قال باهي : أما الفتاة فهي ابنتي وهي لا تعلم شيئا وتريد الدّفاع عني ، بالله أناشدك سيدي طبق علي الحكم الآن .

صمت القاضي برهة من الزّمن و قال : بناء على اعتراف المتهم يحكم القضاء على الجاني المدعو باهي بالموت بالإعدام بواسطة المقصلة .
هنا صمت الجميع ، صمت رهيب حل بالمكان وكأنّ جنازته أقيمت له في حياته، وقد سُمح لباهي بفترة قصيرة يقضيها مع أصدقائه .

- نظرت إليه حذام باكية وقالت : لما يا باهي ؟ بالله عليك لما فعلت هذا ؟
- قال باهي : لا شيء يدعوا للأسف يا بنيتي ، أسأل الله أن أكون مع الشّهداء ، هذا أقل ما يفعله أب من أجل أبنائه ، الله وحده فقط يعلم أنني أحببتكم من أعماق فؤادي مثل ابنتي تماما ، والله إنني تشرفت بمعرفتكم ، دعوا عنكم الحزن يا شباب بانتظاركم حياة طويلة
- قالت حذام صارخة : لكن الذّنب ذنبي!
- قال باهي : ليس لك ذنب يا زرقاء اليمامة فلا مفر من القضاء والقدر ، في الأخير أن يموت عجوز هرم بمفرده خير من أن يموت خمسة شباب يافعين ، أوصيكم خيرا بابنتي ، و استودعكم الله الذّي لا تضيع ودائعه وحاول باهي الابتسام فارتسمت شبح ابتسامة ميتة تبوح بآلامه الدّفينة ، أما عيناه فكانت تبوح بالكثير فإذا العيون تكلمت بلغتها قالت ما لم يقله خطيب .
- ثم أردف قائلا ككلمة للوداع : مثواي جنات عدن ان شاء الله ، سنلتقي في الجنة يا ابنائي .

جذبه حارس بحيوانية الى المقصلة آخذا إياه إلى حيث سيصلب ، أغمض عينيه متمتما بكلمات هي بالتأكيد كلمات الشّهادة و التّوحيد ثم ابتسم ، وبعدها تناثرت الدّماء في كل مكان و تدحرج رأسه على الأرض والابتسامة مرسومة على شفتيه .

في تلك اللحظة وصل فارس ملثم اقتحم ميدان الحدث ، وعندما شاهد رأس باهي صرخ صرخة عظيمة وحاول الوصول إلى جثته لكن الحراس منعوه ، فقال مخاطبا القاضي :

أ تسمي نفسك قاضيا يا حيدر؟ الجميع يعلم حنكتك وذكاءك أعلم أنك تعلم علم اليقين ببراءة باهي .

- رفع القاضي حاجبيه وقال متجاوزا الاهانة : ومن تكون أنت ؟
- قال الشاب باكيا : أنا شاب عالجني هذا الطّبيب وأنقذني من موت محتوم بسبب لسعة أفعى ، عالجني بالمجان وقد وعدته أمي أن نفديه بحياتنا لكنني أتيت متأخرا ، ما إن سمعت أنه قد تم القبض على سارقي التّاج لم يسمح لي ضميري أن يحاسب أشخاص مكاني ولم أتوقع أن يذهب باهي ضحية
- قال القاضي متعجبا : أنت من سرق التّاج؟ ولماذا قال باهي أنه هو من سرقه؟
- قالت حذام باكية : ليفدينا ، لقد خشي أن يتم قتلنا جميعا
- التفت القاضي حيدر نحو الشاب وقال : وكيف سرقت التاج؟
- قال الشّاب بشجاعة : أهذا مهم؟ المهم أنني سرقته ويجب عليك أن تعاقبني ، بل الأهم هو لماذا سرقت التاج! أتود أن تعرف لما ؟! أو أن حياة التّرف والمعاناة أعمت بصيراك عن رؤية معاناة الآخرين ، فلتعلم أن أمي قد مرضت مرضا شديدا ولم أكن أملك ثمن علاجها

كنت أشاهدها تموت موتا بطيئا بعيني كل يوم ، و كنت أتساءل كل يوم لما قد يحتم علي القدر مشاهدة أمي تموت في حين يداوي ذوي الجاه والسّلطان ذويهم بالغالي و النّفيس؟ ، وعندما شاهدت التّاج قد سقط و وسرقته شاهدت طوق النّجاة ، لكن أمي عندما رأته فضلت الموت على العلاج بثمنه ، ثم التفت

نحو الملك وقال : بئس الملك ملك اضطر شعبه الى السّرقة من أجل البقاء على قيد الحياة ، هل تعلم متى تسقط جريمة السّرقة ؟ أنت لا تعلم بالتأكيد ، كل ما تعلمه هو كيف تلبي حاجات شهواتك ، أنصت إلي إذا سأقول لك متى تصبح السّرقة فضيلة ويسقط جرمها ، تصبح السّرقة فضيلة عندما تنعدم السّبل في وجهه و يسرق من أجل البقاء على قيد الحياة .

نهض القاضي نحوه وعانقه ، وهمس في أذنه : إن كان لا بد فمصيرنا واحد أيها البطل ، عسى أن يغفر لي ربي

لم يتحمل الملك كادح الاهانة وطلب من حراسه أن يقتلوه فرموه بسهام صوب قلبه ، وعندما سقط على ظهره انزاح اللّثام كاشفا عن ابتسامة هي ابتسامة النّصر والحرية ، ثم امر كادح القاضي ان يدوس على وجه الشاب لكن القاضي عانق الشاب الميت فنهض الملك و طعن القاضي في ظهره وداس على وجهيهما .

* * *

أحيانا تأتينا المصائب والابتلاآت تباعا ، حيث يفرض علينا القدر طريقين اثنين لا ثالث لهما ، اما الاكتآب و الانطواء أو التّعايش مع الأزمات .

يقال أن أسوء ليلة في حياة الإنسان هي اللية التّي يقضيها بعد مرور والديه، بقيت ذبيان عند قبر والدها تنحر عليه دموع الشّوق والكمد ، وكانت بقربها حذام التّي أبت أن تفارقها ، فجأة صمتت ذبيان ؛ تأملت حذام وجهها فوجدت الهالات السّوداء تحيط بعينيها اللتين ذهب عنهما بريق الأمل و المرح منهما

و خيل إليها أن عينيها ستنفجر بالدّم في أية لحظة ، هدأت ذبيان و وضعت رأسها في حجر حذام التّي أشاحت ببصرها فرأت جيشا عظيما قادما فأغمضت عينيها و ارتسمت على عينيها ابتسامة أسى ، داعبت بأناملها خصلات شعر ذبيان التّي نطقت بشكل مفاجئ كلمة " آسفة " اندهشت حذام وقالت برقة ولما الأسف يا جميلتي؟

- قالت ذبيان : لأنني تسببت في أسركم وكدت أتسبب في قتلكم
- ابتسمت حذام وقالت : لا شيء يدعو للأسف إنه قضاء وقدر ، لكنني يا ذبيان لم أفهم جيدا قصدك بإعادة التّاج وحفره في حديقة المنزل
- قالت ذبيان : أردت المساعدة فقط ، ظننت أن التاج فعلا هو ملك لمن يجده ولا يشكل أي خطر وكنت أعتقد أنكم بحذركم تعقدون الأمور فقط ، كان الفقر والعبودية شبحين يهددانني أينما حللت ، كل يوم كنت أخشى أن يكون واقعي كابوسا و أخشى أن أصحى على صوت الصّراخ وضرب السّوط فأوحى لي عقلي أن أجلب التّاج
- طبعت حذام قبلة على جبين ذبيان و همست في أذنها : لا تحزني يا جميلتي لا ذنب لك .

ابتسمت ذبيان ابتسامة أمل وقالت : لا تنسيني يا حذام أستودعك الله الذّي لا تضيع ودائعه ، ثم تمتمت بكلمات وأغمضت عينيها و صمتت شفتاها ، وضعت حذام يدها على قلب ذبيان فلم تشعر بشيء ، صرخت حذام صرخة أفزعت وحوش الغاب و بدأت تبكي بكمد، لقد ماتت ذبيان حزنا على والدها!

كانت دموع حذام تنهمر بصمت وامسكت شعر ذبيان وضفرته في شكل جديلة طويلة ، نادت شقيقها و الأخوين أوس وميلاء وتمت عملية دفنها ، ذهبت زرقاء اليمامة إلى الغابة وجمعت أزهارا و شكلتها في طوق و وضعته حول

القبر و نقشت عبارة في القبر : " علاقة مميزة هي التّي تربط الفتاة بوالدها،غياب الأب يعني غياب الأمن في مملكة الفتاة"
ثمّ قالت لأخيها ببرود : الجيش يقترب .

بعض الأشخاص يتركون في حياتنا ذكريات جميلة يصعب نسيانها ، إن العالم أشبه باللّيل مهما طغى الشّر والسّواد يبقى هناك أشخاص طيبون مميزون هم دائما كالنّجوم .
جلست ميلاء التّي أصبحت أشبه بجثة تتنفس عند قبر ذبيان معلنة أنها لا تنوي النّهوض فجلس الجميع بقربها .

* * *

هناك في المقبرة استيقظ اربعة اشخاص بنتان و ولدان ، الفتاة الاولى كانت سوداء الشّعر والعينين سمراء البشرة تحيطها هالة من الرّعب ، و الثّانية لها شعر أسود طويل وعينان زرقاوان مزينتان بكحل عربي أصيل .
علا صوت الصّراخ شيئا فشيئا وظهر وهج نيران متقدة

- قال جناح بنصر : الجيش!! اتمنى أن يبيد هذه المدينة عن بكرة أبيها وأن ينكل بحاكمها أبشع تنكيل.
و ارتفع صوت الصّراخ و وهج النّيران في كل أنحاء المدينة

- قال أوس بسخرية : لما نحن هنا؟ ننتظر أن نموت كي نردم مع الموتى بشكل مثالي دعونا نذهب إلى المنزل وليكن مايكون .
- قالت ميلاء : أنذهب إلى الموت بقدمينا ؟!

- رد أوس بألم : الموت؟ لا أعرف موتا غير ما عشناه ، لا أبالي الآن بشيء آخر .
- سألت ميلاء : لما لا نذهب إلى أرض أخرى ؟
- صرخ جناح : أهلنا وجيراننا تخلوا عنا وكدنا نموت ظلما ، أيحتوينا أناس آخرون؟ لا مكان لنا في هذا العالم سوى هذه الأرض ، لن أموت جبانا خائفا هاربا من الحرب ، أ عشت طوال هذه السّنين في أرضي ثم أتخلى عنها بمجرد قدوم الخطر؟! سأبقى على الأقل كي أرد جميل هذه الأرض ، ثم استدار نحو زرقاء اليمامة و سألها قائلا ؛ أتبصرين البيت ؟
- قالت حذام : أنا أراه ، إن الطّريق إليه آمن .

حاصر الجنود المدينة من كل النّواحي وفرضوا قوانين جائرة على السّكان الأبرياء ، بعد أيام قلية وصلت النّيران إلى حيهم ، كان جناح و أوس يساعدان بكل الطّرق الممكنة في حين كانت ميلاء وذبيان تطبخان الطّعام و توزعانه على النّاس وتقدمان المساعدة والإسعافات للمرضى ، كان الوقت بطيئا وثقيلا كأنه يأبى المرور أو يمر على مضض ، أيام من الجوع والقهر والرّعب وانتظار الموت ؛ إن انتظار الموت هو أصعب من الموت نفسه .

من الصّعب أن تعرف من المتسبب بالحروب لأن هنالك العديد من الأطراف المتداخلة ، لكن من السّهل عليك معرفة الضّحية ؛ الأبرياء دوما هم الضّحايا .

لم تستطع زرقاء اليمامة معرفة عدد المرات واللّيالي التّي استيقظت فيها على صوت وقع أقدام الجنود

لا توجد وحدة لقياس مقدار رعب ميلاء عندما ترى ثقب الجدار أحد الأبرياء

وهو يجلد ، وكم من مرة اضطر جناح للاختباء في وسط الأشواك ، ومن الصّعب قياس المسافات التّي ركضها أوس هربا من الجنود الظّالمين ، بمرور

الأيام كانت الحرب تزداد بشاعة ودموية وتمكن جنود الملك غضنفر من السّيطرة على مدينة المزن بشكل كامل .

- قال أوس باضطراب : لقد أصدروا قرارا بمنع التّجول من أين سنحصل على الطّعام ؟!
- زفر جناح بحنق وقال : أصبحت لا أطيق الوضع!
- قالت ميلاء بسخرية : هذا بسبب ذكائك ! لو أننا فررنا من البداية إلى أي مدين أخرى لكان الوضع مختلفا
- قال جناح بحزم متجاهلا سخرية ميلاء : سنفر إلى الغابة ، ومن ثم نتجه إلى أي مدينة أخرى ، لقد خسرنا كل شيء و حياتنا تبددت هنا
- قالت ميلاء : قرارك متأخر لا فرصة لنا في العيش في مكان آخر، الجنود يحيطون بالمكان من كل جانب
- قال جناح : يمكننا الفرار ليلا عبر الغابة والنّاس نيام
- قالت ميلاء بسخرية : ماذا؟ من الذّي كان يريد ردّ الجميل إلى مدينة المزن
- قال جناح : كفى يا ميلاء ، لقد فعلنا كل ما بوسعنا حتى باتت حياتنا مهددة بالخطر
- قال أوس موافقا جناح : رأيي من رأي جناح سنذهب صوب الغابة ليلا
- قالت حذام بأسى : ومتى؟
- قال أوس : الليلة!
- ردت حذام : الليلة؟!
- قال جناح : يا حذام لم تعد لنا حياة هنا ، هانحن نصارع الحياة من أجل

البقاء ، و نكاد نضحي بحياتنا من أجل الحصول على رغيف الخبز ، الحياة لا تنتهي هنا ، لما ضيق النّظر؟

* * *

أسدل اللّيل ستاره و ازدانت السّماء بمصابيح استغلها الأصدقاء للفرار صوب الغابة ، كان الصّمت سيد المكان ، فكان يخيل إليهم أن أصوات دقات قلوبهم الخائفة تسمع إلى مدى بعيد ، سارت الأمور على ما يرام ، و أصبح يفصلهم على الغابة منعطف واحد فجأة سمعوا صوت أقدام فاختباوا فوق تلة صغيرة مستغلين ظلام الليل ، ظهر مجموعة من الجنود من المنعطف و صرخ قائلا من هناك؟!!
وعندما لم يجد اجابة أمر جنوده بانراة المكان بواسطة المشاعل ، ومن شدة التّوتر انزلقت قدم ميلاء فسقطت أمام الجنود ، تبعها شقيقها أوس ولم يستطع جناح الاختباء اكثر فتبعهم و قررت زرقاء اليمامة اتباع اخيها

- صرخ رئيس الحرس بقسوة : لا بد أنكم من سكان مدينة المزن! ماذا تفعلون هنا؟! ألم تسمعوا بقرار منع التجول؟!

- قال أوس بشجاعة : لقد أصابنا الجوع وخرجنا للبحث عن الطّعام لأننا لم نتذوق شيئا منذ أيام
- رد رئيس الحرس: تبحثون عن الطّعام ليلا في جماعة وفي أيديكم حقائب؟ ما رأيكم بتذوق طعم سيفي إذا؟

أمسك جناح يد أخته وانطلق راكضا وكذلك فعل أوس وميلاء ، وبمعجزة استطاع الأربعة تظليل الحراس والاختباء رغم السّهام المنبعثة في كل مكان معتمدين على معرفتهم بالمدينة وظلام اللّيل الذّي ساهم في سترهم .

بعد برهة قصيرة استطاع جندي ايجاد مكان اختبائهم وأخبر بقية الجنود ، في جزء من الثّانية غرز جناح سكينا في فخذ أخته و جرح وجهها الجميل وضربها في عنقها و أسفل بطنها ، و سمعته يهمس في اذنها قبل ان يغمى عليها "أنا أحبك ، آسف " ، و أصبح يحيط بها الظّلام من كل الجوانب

طلب الجنود من جناح وأوس و ميلاء رفع أيديهم فخضعوا للأمر مذعنين

- سأل قائد الحراس بلهجة فظة : ألم تكونوا أربعة؟!

- قال جناح : بلى سيدي .
- رد الحارس : و أين رابعكم ؟
- أجاب جناح مشيرا إلى جسد أخته المجروح والمخضب بالدّماء: هناك يا سيدي ، أصابتها سهامكم فخرت صريعة .

تسللت كلمات جناح إلى وعي حذام بالرّغم من إغمائها ، إذا هو جرحها كي ينقذها ، البعض يجرحنا لمصلحتنا ، لعلمه أننا أقوياء ، وإدراكه بأن جروحنا ستلتئم وسننهض ليكون نهوضنا كنهوض بركان خامد استهزا به الجميع .

- قال الحارس : سنأخذ الفتاة إلى الأسر وقد تنضم إلى خادمات القصر فهن قليلات ، أما أنتما فسينظر إلى أمركما رئيس الحرس فقد أصر على إبقئكم أحياء .

همّ الحارس بتقييد ميلاء فصرخ أوس بجنون : لا تلمسها ! اترك أختي!

- توسلت ميلاء وهي تبكي : أخي أرجوك لا تدعهم يأخذونني

تجاهل الحارس حوار ومشاعر الأخوين وشرع يقيد ميلاء فما كان من أوس إلا أن اندفع بصفة غريزية ليصد الحارس بالرّغم من أنه كان أعزلا، إن الأخ هو حبل النّجاة شقيقته إلى آخر رمق ، انقض أوس على الحارس الذّي أخرج سيفه وقطع رأس أوس فتدحرج رأسه بعيدا وسقط جسده أرضا وهنا صرخت ميلاء صرخة ملأت أقطار السّماوات و الأرض فدفعها الحارس بوحشية حيوانية إلى خارج المغارة .

حاول جناح جاهدا أن يتمالك نفسه ولم يستطع كبح دموعه التّي تساقطت ترثو حال أوس ، انصاع جناح مستسلما إلى أمر الحارس فهو أراد أن يتم

كل شيء بسرعة لأنه لم يكن يتحمل المزيد إضافة إلى أنه لم يكن يريد اكتشاف أمر أخته ، إنّ الاستسلام لا يعني الضّعف و الجبن بالضّرورة ،

أحيانا يكون الاستسلام شجاعة وحكمة عندما يترتب عنه تفادي الضّرر ، كان جناح يدرك أن التّمسك لا يجدي نفعا لعلمه أن الاستمرار في المقاومة لن يوصله لما يريد فقرر منح فرص لمواجهات قادمة علها تكون أكثر نفعا مثل زهرة قررت الابطاء في النّمو لتنموا في تربة قوية بدل النّمو في تربة هشة ضعيفة فاستسلم في المعركة عله يربح الحرب ، كان استسلامه المؤقت يعكس ذكاء عاطفيا وتكتيكيا حادا

حاول جناح عبثا توجيه رسالة إلى أخته لعلمه أنه وإن غاب جسدها فستبقى روحها في الجوار تسترق النّظر فقال : مهما اشتد دجى اللّيل هناك نجوم نهتدي بها أثناء سيرنا إلى أن يأتي النّهار فلابد لليل أن ينجلي، لم يهتم الحارس لكلام جناحٍ و واصل تقييده .

* * *

لم تعد زرقاء اليمامة تعلم كم مرّ على تلك اللّيلة المشؤومة ، و أصبح القبر الّي حفرته لأوس بمثابة رمز للفناء بالنّسبة إليها ، لقد فقدت الفتاة الإحساس بالزّمان والمكان ، شيئل فشيئا التـأمت جراحها فأصبحت أقوى ، إلا أن روحها جرحت جرحا عميقا يستحيل أن يلتئم ، لكنها في قرارة نفسها عقدت العزم أنها لن تستسلم ، نعم هي لن تستسلم ، ستنهض من جديد كي تصبح أقوى لأنه هدف جناح الذّي ضحى غير آبه بأحد من أجلها لعلمه أن أخته لن تخذله ، ستصبح قوين من أجل : جناح و أوس وباهي و ذبيان و ميلاء .

مستغلة قوة بصرها أصبحت تصعد التّلال وترى أحوال مدينتها ، لكن الجنود كانوا لا يزالون يطوقون المنطقة ، أضحت حذام تقتات على النّباتات و تأكل

من أوراق الأشجار و تشرب من مياه الوديان والأنهار ، كثيرا ما كانت تبكي ذكرى أخيها وقلبها يحترق وجعا وكمدا لمعرفة مصير صديقتها .

ذات صباح استيقظت حذام على صوت العصافير وهم يرددون ألحانهم الصّباحية المعهودة ، كانت الفتاة تتضور جوعا فهمت تجمع شيئا من النّباتات حتّى أبصرت جنودا يضرمون النّار في بيوت كان بيتهم من ضمنهم ، هنا استسلمت زرقاء اليمامة لبكاء هستيري عنيف ، فانسابت دموعها تسقي تربة الغابة التّي احتضنتها بولع كأنها تتضامن معها أو كأنها متلهفة لتلقي المزيد .

مرّ كثير من الوقت على آخر مرة رأت فيها جناح ، هي الآن مستعدة للتّضحية بكل شيء مقابل أن تراه ولو للحظة واحدة.

توالت الأيام ... يوما بعد يوم .. وعند انقضاء كل يوم كانت تشعر أن جزءا من روحها يتلاشى ، إلى أن جاء يوم أبصرت فيه أن عدد الجنود بدأ بالتّضاؤل فقررت الذّهاب إلى مدينتها وليكن ما يكون .

"مهما اشتد دجى اللّيل هناك نجوم نهتدي بها خلال سيرنا ، إلى أن يأتي النّهار فلابد للّيل أن ينجلي "

قالها جناح موجها إياها إلى أخته الصّغيرة ، لقد كان واثقا أنها فهمت رسالته كثقته أنها ستتدبر أمرها ، لكن شعور القلق ظل يزامنه .
تم اقتياد جناح وميلاء بمكان خاص بالأسرى ، قرر أحد الحراس أخذ ميلاء لتعمل جارية لكنها ظلت تقاوم و تصرخ شامتة وشاتمة إياهم علها تشفي غليلها من قاتل أخيها الذّي لم تره منذ ذلك اليوم فما كان من الحارس إلا أن غرز خنجره في قلبها ، أدرك جناح أن مصيره سيكون بالمثل إن هو واصل العناد فقرر الصّبر ليرى ماذا سيحدث ، ونظرا لبنيته القوية تم أخذه ليتم تجنيده .

* * *

سارت زرقاء اليمامة بحذر نحو رفات بيتهم القديم فإذا بها تندهش ببقاياه والرّماد المحاط به كأنه أطلال ، كانت تمضي لياليها في بيوت المحسنات إلى أن وجدت فرصة للعمل في قصر الملك كادح كمعلمة لأبناء الوزراء بحكم أنها تجيد القراءة والكتابة رغم كرهها له .
ذات يوم ، وحين كانت تسير في الرّواق ، فوجئت بأحد الحراس يستوقفها قائلا : أنت ! ألم تكوني محتجزة رفقة خمسة أشخاص آخرين بتهمة سرقة التّاج الملكي؟
ردت حذام قائلة بتوتر : نعم و لما؟

* * *

أخذ الحارس حذام عنوة إلى الملك كادح وقال : إنها هي يا مولاي ، لا يمكنني الخطأ في عينيها .

- قال الملك كادح موجها كلامه إلى حذام : أ أنت من تنبأ بقدوم جيش الملك غضنفر ولم يصدقك الجنود ؟
- قالت حذام : نعم يا مولاي ، لقد رأيتهم من على بعد أكثر من أربعة أيام وكان خلفهم جيش أعظم على بعد عشرة أيام
- رد الملك : أخبرني الحراس بهذا لكنه أمر مستحيل
- ردت حذام : إنّ لي بصرا حادا يا سيدي
- قال الملك بمكر : لي معك صفقة يا ....؟
- قالت حذام : حذام ... حذام يا سيدي أو كما ينادونني زرقاء اليمامة يا سيدي .
- قال الملك : حسنا يا زرقاء اليمامة ، لك ما تشائين لو أنك تعملين معنا وتنبئيننا بأي هجوم آخر .
- قالت حذام بلهفة : لا أريد سوى أخي يا سيدي
- قال الملك : وأين شقيقك ؟
- قالت حذام : لا أعلم يا مولاي ، لا أدري عنه شيئا لكن إحساسا يراودني أنه على قيد الحياة ، لابد أنه أسير في مملكة الملك غضنفر
- قال الملك : موافق على شرطك ، ثم استدار إلى جنزده وقال : " إذا قالت حذام فصدقوها ، فإن القول ما قالت حذام "

* * *

يوما بعد يوم كان الشوق يعصر بجناح أكثر ، كاد التّفكير يقتله وألف سؤال وسؤال كان يراوده ؛ هل أخته بخير ؟ أين هي الآن ؟ كيف حالها ؟

كان يدرك أن الهروب من مملكة الملك غضنفر هو الجنون بعينه ، الحراسة كانت مشددة كثيرا ، إضافة إلى أنه لا يعرف طريق العودة ، ولولا قوته البدنية وقلة الجنود لتم قتله من زمان طويل .

كانت الأحوال في مملكة الملك غضنفر سيئة ، لأنهم كلما حاولوا غزو مملكة المزن فشلوا و وجدوا جيشها ينتظرهم والأسوار محصنة مما دفع بجناح إلى الشّك فهو يعرف جيدا غباء حاكمهم ، و ذات مرة سمع إشاعة التّي لم يصدقها الكثير من النّاس تقول أن في مملكة الملك المزن فتاة تدعى حذام ترى على أكثر من عشرة أيام تساعدهم في معرفة الجيوش القادمة و سمع أيضا أن لهذه الفتاة شأنا عظيما في مملكتها فيقال " إذا قالت حذام فصدقوها ، فإن القول ما قالت حذام "

وهنا اختلجت معاني السّعادة في قلب جناح عندما علم أن لأخته شأنا عظيما وأنها بخير

بعد مدة قصيرة سمع صدفة أحد الحرس يثرثر حول صديقه أنه سيتم غزو مدينة المزن ، ولكن الملك غضنفر متخوف من الفشل هذه المرة أيضا لكنه يخفي شعوره كي لا يحبط عزيمة الجنود، وهنا لمعت بذهنه فكرة وتجاهل ثأره ، وبالكاد استطاع مقابلة الملك

- قال جناح : مولاي سمعت أنكم ستشنون غارة على مدينة المزن وهي مدينتي وجئت أنبئك بنبئ
- قال الملك بجفاء : قل ما لديك
- رد جناح قائلا : يا مولاي ، سمعت أنكم ستشنون غارة على مدينة المزن وهي مدينتي ، و لو أعطيتك حلا لنجاح الغزو هل تعدني بشيء؟
- ضحك الملك وقال : أهذه خدعة ؟ لما تعطيني حلا لنجاح الغزو ؟ لما قد لا ينجح أصلا؟!! لقد غزوت مدينتكم من قبل وقد نجح الأمر
- قال جناح : لابد أنك سمعت بتلك الفتاة التّي تعمل لدى مدينة المزن

- رد الملك محاولا التّحدث بلهجة ساخرة لكنه لم ينجح في اخفاء اهتمامه بالموضوع : نعم سمعت بها ، أتذكر أن اسمها حذام ، ويقال أنها سر الملك كادح الذّي يصد به الهجوم ، سمعت أيضا أن يها شأنا وقيمة في مملكة المزن فيقال أنه يقال لها " إذا قالت حذام فصدقوها ، فإن القول ما قالت حذام " ، لكنني واثق أنها مجرد إشاعات لا صحة لها ، أتعرفها أنت ؟
- رد جناح : ليست مجرد إشاعات يا سيدي ، إنها حقيقة فعلا وهي أختي يا مولاي!
- قال الملك بشك : وهل تستطيع أنت أيضا الرّؤية مثلها ؟
- قال جناح : لا ياسيدي ، إن معجزة نظرها خاصة بها وحدها

- قال الملك : ولما لم تنبئهم في أول هجوم ؟
- قال جناح : لقد قامت بالفعل لكن أحدا لم يصدقها ، لقد كان ذلك في السّجن لأننا اتهمنا بسرقة تاج ظلما ، وعندما اخبرت الحراس أنها رأت جيشكم على بعد أربعة أيام وجيش أعظم منه على بعد عشرة أيام لم يصدقها أحد وظنوها خدعة للخروج من السّجن .

أطرق الملك مفكرا وقد بدأ الشّك يتسلل إليه ، لقد سمع فعلا عن هذه الفتاة التّي أصبحت تنبئ الملك كادح عن الهجومات والجيوش قبل أن تصل بمدة طويلة فكان يأخذ كل احتياطاته ، لكن الأمر أصعب من أن يتصور ، ومما جعله يشك أكثر أنه لازال يتذكر أن الفرق بين الجيشين هو فعلا فرق ستة أيام ، حسم الملك أمره وقال لجناح :

- ماهو الحل برأيك؟
- أريد مقابلا يا سيدي
- مقابلا؟ و ماهو؟
- أريدك أن تعدني أنك ستساعدني على إيجاد أختي و عدم إيذائها

- حسنا لك ما طلبت ، لكن لدي شرطا أيضا
- وما هو؟
- أن تجعلني أقابل أختك
- ما الذّي تقصد؟
- لا تقلق أود رؤية هذه المعجزة فقط
- موافق ، لك ما أردت
- و الآن أخبرني هل لديك حل ؟
- بالطّبع سبق أن فكرت به

* * *

تعودت حذام على الملل وأصبح صديقها الوفي ، وضع لها الملك كادح غرفة في ذلك البرج الشّمالي ، فأضحت تلك الغرفة هي كل عالمها ، كانت غرفة صغيرة جدرانها و سقفها من خشب البلوط البني الجميل ، وفي النّوافذ كانت موجودة في كل حائط من الغرفة ، وفي الزّاوية كان هناك

فراشها وأمامه خزانة صغيرة فوقها مجموعة من الكتب و أمامها كحل عربي أصيل ، كان عملها مملا حقا ، طوال اليوم وهي تجلس تراقب الأفق تحسبا لأي جيش و الذّي جعل الملك يتمسك بها أنها كثيرا ما كانت ترصد الجيوش وتعلمه ، وكان الجنود يقدرون عملها كثيرا فما إن كانت تعلمهم بقدوم جيش كان الجميع ينحني لها ويقول لها بخضوع :
" إذا قالت حذام فصدقوها إن القول ما قالت حذام "

ذات يوم جلست بجانب النّافذة فرأت أمرا عجبا قلب الموازين رأسا على عقب

هي لا تصدق عينيها ، أ وهم هو أم سراب ؟! .... لا ليس هذا ولا ذاك ، إنها الحقيقة حتما

لكن أية حقيقة ؟ إنها ترى الأشجار تتحرك

لم يكن لديها خيار سوى أن تخبر قائد الحرس الذّي ضحك حتى دمعت عيناه ثم قال :

- كذبت أو خانك بصرك يا زرقاء اليمامة
- أرى الحقيقة يا قائد الجند
- حذام ! أتهزئين بي؟ لو لم تكوني بالعشرين لقلت أنك كبرت بالسّن و أصابتك هلاوس
- أنا أخبرك الحقيقة ، لقد رأيت الأشجار تتحرك وهي قادمة إلى هنا وتفصلها مسافة ...
- انتهى الأمر يا زرقاء اليمامة ، انت اما تكذبين أو خانك بصرك أو أصابك ضرب من جنون ، الزمي غرفتك والا قطعت رأسك واخبرت الملك انك جننت ليفصل رأسك عن جسدك بما أنه انتهت صلاحيتك .

دخلت حذام الى غرفتها و شرعت تبكي بحدة ودوي كلمات الحارس يزأر برأسها " .. والا أخبرت الملك أنك جننت ليفصل رأسك عن جسدك بما أنه انتهت صلاحيتك "

انتهت صلاحيتك ؟ هل هي آلة ام سلعة ؟ ومنذ متى صار للانسان صلاحية؟

نهظت حذام و شرعت تتأمل ببرود جيش الأشجار يسير وقد عزمت أن تثأر لكرامتها وأن تصمت مهما حدث .

* * *

كان جناح يتلحف جذع شجرة مطمئنا كل الإطمئنان أن خطته ستنجح ، زرقاء اليمامة ستراهم لكنها لن تعرف بأن جنودا هم من يتلحفون جذوع و أوراق الأشجار بالتّأكيد ، حتى لو أخبرت ذلك الملك الغبي فهو لن يتفطن للأمر بالتّأكيد .
أخيرا وصل الجيش إلى المدينة ، و كما توقع لم تكن هناك أية استعدادات أبدا ، انسل جناح من الجيش وكان يتفادى قتل الأشخاص ، كان حصار المدينة أسهل بكثير مما توقعه جناح ، ملك مدينة المزن الغبي لا يتعلم .
كان جناح يحاول التّرف على أخته من بين جموع النّاس الخائفين ، أيعقل أن مكروها قد حل بها؟!
بحث جناح في كل الأماكن الممكنة لكنه لم يجدها فدخل القصر والشّرر يخرج من عينيه عازما على قتل الملك المهمل والظّالم إن حل مكروه بأخته ، بحث كثيرا في أروقة القصر حتى استطاع رؤية الملك في حالة ذعر شديد وهو يترجى في الحرس أن يبقوا بجانبه الا أنهم لم يعبؤوا به ، هرع جناح نحو الملك و سأله عن أخته لكنه لم يجبه وحينما أدرك أن جناح مصمم على قتله طلب منه الأمان مقابل إعلامه بمكان أخته فوافق جناح ، فأخبره الملك أنها موجودة بالبرج الشّمالي.

هرع جناح نحو البرج الشّمالي ، ولحسن الحظ كان قد وصل قبل مجيء جند الملك غضنفر ، صعد سلالم البرج حتى وصل الى غرفة وعندما

فتحها وجد فتاة زرقاء العينين يحيط بهما كحل عربي أصيل ، هرع الى اخته واحتضنها وهمس في اذنها : لا تخافي يا صغيرتي أنا معك الآن .
كان جناح ذاهبا مع أخته الى الملك غضنفر لكي يفي له بوعده ، فقد سبق أن وعده أنه سيجعله يقابل أخته حذام ، وفي الطّريق كان ممسكا بيد أخته ويقص عليها كل ما جرى له بسعادة ، حينها لم يعلما أنهما يسيران إلى حتفهما بأقدامها .

* * *

- قال الملك غضنفر لحذام : اذا أنت هي زرقاء اليمامة التّي حدثني عنها جناح
- قالت حذام : نعم مولاي أنا هي زرقاء اليمامة
- قال الملك ساخرا : اذا هل رأيت الأشجار تتحرك؟
- ردت حذام : نعم يا مولاي ، لكن أحدا لم يصدقني .
- قال الملك : حسنا يا حذام يبدو أنك فقدت عملك في مدينة المزن
- قالت حذام بتردد وقد تنبأت بما يريد : نعم يا مولاي
- قال الملك : ما رأيك بالعمل لصالحي ، تراقبين الجيوش وتخبرينني بأحوال الممالك الأخرى ؟
- تدخل جناح قائلا : لا ... مستحيل !! لقد قُتل أصدقاؤنا من طرف جنودك، ونحن لا زلنا أوفياء لذكراهم ، لقد تعاملت معك من أجل أختي .. من أجل أختي فقط لا غير ، لن أقبل بالتّعامل معك أكثر

- قالت حذام : آسفة يا سيدي ، لن أقبل بهذا العرض
- قال جناح : أ واثقان أنتما؟

- **قالت حذام : كل الثّقة**
- **همس الملك قائلا : لا فائدة ترجى**

هنا أومأ الملك إلى جندي فرمى سهمين متتاليين ، الأول لجناح والثّاني لحذام .

تقدم الملك وأخرج مقلتي حذام من محجريهما فوجد داخلهما كحلا عربيا أصيلا .....

تمت بحمد الله

13 :18

2025 / 06 / 24

شيفاوي أنيسة - الجزائر